



العتبة العباسية المقدسية
قسم الشؤون الفكرية والثقافية

مَهْرَجَاتُ فِتْوَى الدِّفَاعِ الْمُقَاتِلِ الثَّقَلَيْنِ فِي الْأَوَّلَى

تَحْتِ شِعَارِ

مِثْلَادِ الْعُلَمَاءِ وَرِثَاءِ الشُّهَدَاءِ لِحِفْظِ أَرْضِ الْأَنْبِيَاءِ

دَوْرُ فِتْوَى الْجِهَادِ لَدَى الْفُقَهَاءِ فِي إِصْلَاحِ الدَّوْلَةِ
— السَّيِّدِ السِّيسْتَانِيِّ زَمُودَجَاً —

أ.م.د. علي خضير حجي

آلاء علي حسين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي
الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(١)

صدق الله العلي العظيم

(١) التوبة: ١٢٢.

الإهداء

مَنْ اتَّخَذَ حَطَامَ الدَّهْرِ كَسْبًا
فَإِنَّ وِلَايَةَ أَمِيرِ النَّحْلِ كَسْبِي
عَقَدْتُ عَلَى مَحَبَّتِهِ يَقِينِي
وَأَخْلَصْتُ الْوَلَاءَ لَهُ وَحَسْبِي

- إلى أمير المؤمنين ومولى المتقين ويعسوب الدين وقائد الغر المحجلين: ﴿يَا أَيُّهَا
الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُرْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ
يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾^(١)، وبحثي هذا هو بضاعتي المزجاة وصحائف ولائي الخالص
أهديها إليك يا مولاي، فتفضل عليّ بالقبول وأحسن إليّ إن الله يحب المحسنين.

- إلى روح من قرن الله طاعته بطاعته.. إلى روح من درجت في باحة ودّه وحنانه
حتى اشتد عودي واستقام وأنا أستمطر في حلك الظلام دعاءه.. إلى روح من غذاني
لبّ الولاية في زمن الجذب السقيم.. إلى روح من نأت بي سطوة الأيام حتى أمست
ذكراه كالطيف الناعم يداعب مخيلتي المنهكة.. إلى روح والدي صاحب القلب الكبير،
الذي أنار لي الطريق ورحل ولم ير ثمار جهده.

- إلى من كان رضاها مصدر التوفيق.. إلى من ليس أحب إليها من أن تسمع وترى
أني سعيد محظوظ.. إلى من قدّمت إليّ كل غالٍ ونفيس في سبيل إسعادي.. إلى الكنز
الزاهر من الحنان والعطف الصادقين.. إلى أمي الحنون حفظها الله ورعاها بعنايته.

أهدي هذا البحث المتواضع..

(١) يوسف: ٨٨.

الشكر والعرفان

(من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق)

فالحمد لله الذي منَّ عليّ بجميل آلائه، فهيأ لي من أستهدي بآرائه إذ كنت أعرض ما أكتبه على أستاذي القدير (د. علي خضير حجّي) والذي لم ييخل عليّ بتجربته العلمية الواسعة وملاحظاته القيّمة والمفيدة وبتوفير المصادر الخاصّة بالبحث والتي أعاننتني كثيراً في إنجاز هذا البحث..

كما لا يفوتني أن أسجل شكري وفائق تقديري ودعائي بالعمر المديد إلى والدتي التي وفّرت لي كل ما أحتاجه وبذلت لي الغالي والنفيس من أجل تذليل الصعوبات التي واجهتني ولم تحرمني من بركات دعائها لي بالتوفيق والنجاح..

لذا صار من الواجب عليّ عرفاناً بالجميل أن أشكرهما على ما رأيت منهما من العناية والاهتمام والتشجيع لإتمام هذا البحث..

الرموز والمصطلحات

١	ت	=	توفي
٢	ظ	=	ينظر
٣	م	=	ميلادي
٤	هـ	=	هجري
٥	ش	=	شمسي
٦	تح	=	تحقيق
٧	د. ط	=	دون طبعة
٨	د. ت	=	دون تاريخ
٩	م. ن	=	المصدر نفسه

المقدمة

الحمد لله المحمود على الآلاء، الواسع العطاء، المشكور بفضلته على جميع أهل الأرض والسماء، الذي غرقت في مطالعة فيض نور كبريائه أنظار الأولياء، وتحيرت في القليل من مبتدعات مخلوقاته أفكار الحكماء، وظهرت فيها آيات بيّنات لوحدايته تعقلها قلوب العلماء، ونطق لبيانها بعجيب الأدلة القاهرة فسمع دعاءه آذان الفضلاء، حمداً جسيماً عظيماً يعجز عن وصفه لسان أهل الحمد والثناء؛ لأنّ لا حمد إلا دون حقه، ولا مدح إلا دون كرمه، ولا عدد إلا دون إحسانه، ولا مدد إلا دون سلطانه، والصلاة والسلام على نبيّه وصفيّه ومستودع سرّه، أوّل الموجودات ومصباح الهداة، وعلى آله معادن الإحسان والجود، لاسيّما ابن عمّه ووصيّه أمير المؤمنين عليه السلام الذي جعله الله تعالى بمنزلة نفس النبي صلى الله عليه وآله صلاة دائمة باقية ما ظهرت أسرار الوجود عن خبايا العدم، متلاحقة متتالية لا تكتمل بالعمم^(١).

وبعد، فإنني قمت بكتابة هذا البحث الموسوم بـ (دور فتوى الجهاد لدى الفقهاء في إصلاح الدولة السيّد السيستاني إنموذجاً)؛ نظراً للظروف التي يواجهها بلدنا العراق الحبيب ودور المرجعية الفعّال في الحراك الوطني وفي إدارة الدولة وإنقاذ البلاد والعباد من الإنجرار وراء الفتنة الطائفية المقيتة، إضافة لما قامت به المرجعية الرشيدة المتمثلة بسماحة السيّد السيستاني (دام ظلّه الوارف) من إصدار فتوى الجهاد الكفائي التي حفظت الأرواح والأعراض والمقدّسات من الاعتداء عليها بشتى الطرق والأساليب من قبل أعداء الله وأعداء الإسلام ممن يعرفون بـ (داعش).

(١) ظ: ابن جبر، نهج الإيمان: ١٩، ظ: ابن الصباغ المالكي، الفصول المهمة في معرفة الأئمة: ٩.

وقد جاء هذا البحث في مقدّمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة، وقد تحدّثت في المقدّمة عن سبب اختياري هذا العنوان لإعداد بحث التخرّج إضافة إلى ذكر ما اشتمل عليه هذا البحث من مباحث ومطالب، أمّا التمهيد فقد تحدّثت فيه عن الدرس الفقهي في النجف الأشرف في مستوياته الأربعة (المقدّمات، السطوح، بحث الخارج، التآليف الفقهي)، وقد ذكرت ما يواجهه المؤرّخ من صعوبة عندما يؤرّخ للمستويات الثلاثة الأولى لعدم توفرها؛ لأنها إمّا أُلقيت ارتجالاً، أو إنّ البعض مفقود، والثالث مخطوط...

أمّا المبحث الأوّل فقد بدأت بتوطئة تعرّضت فيها لذكر تعريف الفقه والفقهاء في اللغة والإصلاح، ومن ثمّ أعقبته بمطالب ثلاثة، كان المطلب الأوّل يتحدّث عن تجربة الشيخ جعفر كاشف الغطاء (المتوفّي/ ١٢٢٨هـ) في المساهمة في إصلاح الدولة والدفاع عن أراضيها ومقدّساتها، كدفاعه عن النجف في الحوادث الدامية كحادثة الشمرت والزقرت، إضافة لتحريضه على الوهابيين أتباع محمد بن عبد الوهّاب وردّه على الإخباريين وعلى رأسهم الميرزا محمد الإخباري، وتحدّث المطلب الثاني عن تجربة الشيخ محمد حسين النائيني (المتوفّي/ ١٣٥٥هـ) ودوره في الإصلاح بحركته التي سمّيت بـ (المشروطة) والتي قام بشرحها وتفصيلها في كتابه (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة)، والمطلب الثالث كان يتحدّث عن تجربة السيّد محسن الحكيم (المتوفّي/ ١٣٩٠هـ) وتصديّيه للشيوعية (المدّ الأحمر) وإصداره لفتواه المباركة التي تنصّ على أنّ الشيوعية كفر وإلحاد.

وقد جاء المبحث الثاني بتوطئة وثلاثة مطالب أيضاً، تناولت في التوطئة إطالة على سيرة السيد السيستاني (دام ظلّه)، وكان المطلب الأوّل يتحدّث عن اسم السيّد السيستاني ونسبه ومميّزاته، والمطلب الثاني عن رحلته العلمية وهجرته من مشهد الرضا عليه السلام إلى قم المقدّسة حتى استقراره في أرض النجف الطاهرة، وتحدّث المطلب الثالث عن بحثه الخارج وعن مرجعيّته وعن آثاره.

ثم اشتمل المبحث الثالث على توطئة ومطلين اثنين تناولت في التوطئة تعريف الإصلاح لغة واصطلاحاً، أمّا المطلب الأول كان يتحدّث عن الإصلاح في القرآن الكريم، والسنة المطهرة واشتمل هذا المطلب على نقطتين هما: أولاً: الإصلاح في القرآن الكريم حيث استخرجت الآيات التي تتحدّث عن الإصلاح وذكرت لكل آية تفسيرين أحدهما من التبيان والثاني من الأمثل، وثانياً: الإصلاح في السنة المطهرة وتعرضت فيه لبعض أحاديث آل البيت عليهم السلام عن الإصلاح.

واشتمل المطلب الثاني على ثلاث نقاط وهي: أولاً: الإصلاح السياسي والإداري والقانوني والذي قام به سماحة السيد السيستاني (دام ظله)، وثانياً: الإصلاح المالي لدى السيّد (دام ظله)، وثالثاً: فتوى الجهاد الكفائي التي أطلقها السيّد (دام ظله) لمقاتلة داعش ومن يريد بالعراق والعراقيين سوءاً.

وفي الخاتمة تحدّثت عن أبرز النتائج التي توصلت إليها من هذه الجولة السريعة في هذا البحث المتواضع.

تمهيد

الدرس الفقهي في النجف الأشرف

تترتب الدراسة أو النشاطات الفقهية في الحوزة العلمية في النجف الأشرف في أربعة مستويات وهي: (المقدمات، السطوح، بحث الخارج، البحث أو التأليف الفقهي المستقل)، فإذا ما أراد أحد الباحثين أن يؤرخ لهذه المستويات الأربعة في الحوزة العلمية منذ نشأتها وحتى الآن وذلك لملاحظة طبيعتها وتطورها، فإن هدفه هذا سوف يتحقق من جانب وينجح من جانب آخر، ففي ميدان التأليف مثلاً يستطيع الباحث أن يؤرخ للحركة الفقهية وذلك من خلال دراسته مؤلفات الطوسي والكركي والأردبيلي وبحر العلوم وكاشف الغطاء والجواهرى والأنصاري واليزيدي والحكيم والخوئي والصدر، فهي متوفرة لديه وبمقدوره أن يلاحظ مستوياتها ومدى تطورها، ولكنه سيرتطم بشيء من الصعوبة إذا ما أراد أن يؤرخ لبحث الخارج؛ وذلك لعدم توفرها جميعاً حيث إن بعض البحوث أقيمت إرتجالاً ولم تضبط بكتابة والبعض منها مفقود، والثالث مخطوط، وهكذا: مع ملاحظة أن كتابة بحث الخارج كما ينقل المؤرخون بدأت مع عصر شخصية بحر العلوم، وهو ما يصطلح عليه مصطلح (التقرير) أي: إن شخصاً أو أكثر من الطلاب يتبرع بتسجيل المحاضرة وصياغتها وفق منهج الطرح العلمي، وأما القرون السابقة على هذا العصر فلم تحظ بذلك وهذا كما أشرنا يشكّل حاجزاً كبيراً أمام المؤرخ في متابعته لطبيعة البحث الخارج ومستوياته وتطوره، وأما الصعوبة فتبلغ مداها الكبير حينما يحاول الباحث أن يؤرخ للمرحلتين الأوليين (المقدمات والسطوح)، حيث لا يتبين سوى الأضواء الخافتة التي تشير مثلاً إلى أن كتاب (النهاية) للطوسي كان مادة دراسية، وأن كتاب المحقق (شرائع الإسلام) نسخ كتاب النهاية وحلّ مكانه، وإن الرسالة

العملية للجواهري (نجاة العباد) فرضت فاعليتها بعد ذلك في مراحل ونطاقات معينة، فمنذ زمن الطوسي والقرون المبكرة بعده لم تحدد المصادر المؤرخة مستويات الدراسة الفقهية في تلحم القرون، بل لا تحدد لنا الفارق بين الدرر التعليمي المباشر والدرر العالي، فلا نبتين من ذلك سوى أنّ هذه الشخصية قرأت على يد فلان كتاباً للطوسي أو العلامة الحلي أو الشهيدين...، دون أن نعرف خصوصيات هذه القراءة من حيث مستواها العادي أو العالي، وكل ذلك يحتجزنا عن متابعة الدرر الحوزوي في نطاقاته الثلاثة (المقدمة، السطح، الخارج) بالنسبة إلى القرون الأولى (أي من القرن السادس إلى الثالث عشر) السابقة على مرحلتنا الحالية الممتدة قرناً أو اثنين تقريباً.^(١)

وإذا ما تجاوزنا هذا الجانب من الصعوبات المشار إليها، يكون بمقدورنا أن نتابع المستوى الرابع من النشاط الفقهي وهو (التأليف)، حيث ينبغي أن نكرر الإشارة إلى أنّ التأليف الفقهي يضل متنوعاً، فهناك تأليف فتوائي، لا يمكن للمؤرخ أن يتبين من خلاله مستوى الممارسة الفقهية (أي: طرائق الاستدلال)، وهناك تأليف يجمع بينهما إلا أنّ الاستدلال فيها يضل خاطفاً ومحدوداً، وهناك مجرد شروح وحواش لا يمكن تبينها إلا من خلال النظرة التجزيئية التي يستخلصها الباحث، كما أن قسماً من المؤلفات الفقهية مفقود والآخر مخطوط، والثالث قدّر له أن يجد طريقه إلى النشر، ومتابعة كل ما نشر منها يحتاج زمناً طويلاً وحجماً كبيراً لا يتناسب مع طبيعة الدراسة المختزلة التي ترسم الخطوط الإجمالية للدرر الحوزوي في هذا البحث، فسنقتصر على قراءة تعاقبية لبعض الأسماء الذين كانت لهم نتاجات فقهية ومنهم:

الطوسي (ت/ ٤٦٠هـ) يظل هو مؤسس الحوزة العلمية في النجف، وهو أول حوزوي يتوفر على النشاط الفقهي في شتى مستوياته، فهو حتى في تأليفه الحديثي في كتابيه (الاستبصار) و (التهذيب) يستثمر ذلك في الممارسة الفقهية، حيث نجده في

(١) ظ: جعفر الدجيلي، موسوعة النجف الأشرف: ١٣-١٤.

عرضه الأحاديث يعقب على ما هو مجمل أو متضارب منها فيحل تضاربها الظاهري من خلال الجمع العرفي، حيث ينطلق من مقولة خاصة عُرف بها وهي مقولة: (الجمع أولى من الطرح)، كما أنّ النمط الذي سار عليه الشيخ الطوسي يضل هو العصب العام لغالبية الممارسات الفقهية قديماً وحديثاً، أمّا منهجه في الممارسة الفقهية فنجد فيه عنصر (المقارنة) داخل المذهب وخارجه يضل من الخطوط البارزة لديه، ويظهر ذلك جلياً في كتابه (الخلاف)، كما ينبغي الإشارة إلى أنّ الخطوط العامة لمنهج الطوسي في شتى مستوياته متّسمة بالوضوح والبساطة في تناول، وبعد وفاة الشيخ الطوسي تنكمش الممارسات الفقهية لتأخذ مسارات جديدة نحو الحلة وبلاد الشام وإيران، ولكن بما أنّ ما يهمننا هو الفقه النجفي فنسنع في الاعتبار حضور الشخصية الفقهية في مدينة النجف، وبعد أربعة قرون برزت أسماء كثيرة، منها وافد إلى النجف كالمحقق الكركي ومعاصره إبراهيم القطيفي، أو أسماء مقيمة كالمقدس الأردبيلي، أو أسماء زائرة كصاحب كتابي المعالم والمدارك، حيث قرءا مدّة قصيرة على الأردبيلي وعادا إلى بلادهما، ومن هذه الأسماء سنتناول الحديث عن المقدّس الأردبيلي اختصاراً في الزمن وحجم البحث.^(١)

فالمقدّس الأردبيلي (ت/ ٩٩٣هـ) كان يتّسم بالاقتصاد فيكتفي في ممارساته الفقهية على الممارسة الاستدلالية بالإشارة إلى الآية مثلاً أو الخبر أو الإجماع دون ذكر نصوص الآية والخبر ومصدر الإجماع، كما كان الأردبيلي يعنى بالسند بنحو ملحوظ جداً، حيث يحرص في مداخلاته واستدلالاته على التقييد الكامل بمصطلح الخبر وتحديد نوعه، كما نجد تشدّده في السند ينسحب على غالبية ما تعارف على تقبله من الخبر المنجبر بالعمل أو الشهرة الفتوائية وحتى الإجماع المنقول، إضافة إلى ما ذكرناه من سمات في منهج الأردبيلي في الممارسة نجد لديه سمتين إضافيتين هما (الاحتياط) و (التحفظ) في استخلاص الحكم النهائي للمسألة، وهذه السمة تتسق مع طبيعة تركيبته العبادية،

(١) ظ: جعفر الدجيلي، موسوعة النجف الأشرف: ١٥-١٧.

بما عُرف به من طهارة النفس والتقوى، ودليل ذلك تقديم لقب (المقدس) على لقبه الأصلي الأردبيلي وهذا ما سحب أثره على ممارسته الفقهية من خلال (احتياطاته) في المسألة.

في الحصيلة إن غلبة هذه الطوابع: الاحتياط والاقتصاد أو التشدد في السند على منهج الأردبيلي، لا تعني أنه لا يتجاوزها، بل نجده في مواقع متنوعة يتعامل مع الظاهرة بإسهاب وليس بالاقتصاد، وبالتساهل في السند لا التشدد وباليقين العلمي بفتواه لا بالتحفظ، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال تعامله مع الأدلة الرئيسية والثانوية وأدواتها، ونختم حديثنا عن المقدس الأردبيلي بأن له شخصيته الاستقلالية في ممارسة البحث الفقهي في منهجه وأدواته وطرائق مناقشته ومدخلاته، بالإضافة إلى شخصيته العبادية التي عُرفت بمكاشفاتها وكراماتها التي يسردها المؤرخون في شتى المصادر.^(١)

وهكذا فقد تميزت كل شخصية من الشخصيات الحوزوية الفذة بمنهجها المستقل في ممارسة البحث الفقهي، ولا يسعنا المجال لتناول جميع هذه الشخصيات ك (بحر العلوم، والجواهري، والحكيم، والخوئي، والصدر) وغيرهم من الفضلاء وجهابذة العلم.

(١) ظ: جعفر الدجيلي، موسوعة النجف الأشرف: ٢٢-٢٤.

المبحث الأول:

تجارب الفقهاء في الإصلاح قبل السيد السيستاني (دام ظله).

توطئة: تعريف الفقه والفقهاء:

الفقه في اللغة: العلم بالشيء والفهم له، وغلبَ على عِلْمِ الدين لِسِيَادَتِهِ وشرفه وَفَضْلِهِ على سائر أنواع العلم كما غلب النجم على الثريا والعودُ على المنْدَل، وقد جَعَلَهُ العُرْفُ خَاصًّا بعلم الشريعة، شَرَّفَهَا اللهُ تعالى، وَتَخْصِيصًا بعلم الفروع منه، والفقه في الأصل الفهم. يقال: أُوتِيَ فلانٌ فِقْهًا في الدين أَي فَهَمًا فيه، قال الله عز وجل: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا في الدين﴾^(١)، أَي لِيَكُونُوا عُلَمَاءَ بِهِ، وَفَقَّهَهُ اللهُ، ودعا النبي ﷺ لابن عباس فقال: «اللهم عَلِّمهُ الدِّينَ وَفَقَّهْهُ في التَّأْوِيلِ» أَي فَهَّمْهُ تَأْوِيلَهُ ومعناه، فاستجاب الله دُعاءَهُ، وكان من أَعْلَمِ الناس في زمانه بكتاب الله تعالى. وَفَقَّهَهُ فِقْهًا: بِمَعْنَى عِلْمٍ عِلْمًا^(٢).

وقد اتفق الفراهيدي مع ابن منظور فقال: (الفقه: العلم في الدين. يقال: فقه الرجل يفقه فقها فهو فقيه، وفقه يفقه فقها إذا فهم. وأفقهته: بينت له. والتفقه: تعلم الفقه)^(٣).

أما صاحب الصحاح فقد عرفه بقوله: (الفقه: الفهم. قال أعرابي لعيسى بن عمر: (شهدت عليك بالفقه) تقول منه: فقه الرجل، بالكسر. وفلان لا يفقه ولا ينقه. وأفقهتك الشيء. ثم خص به علم الشريعة، والعالم به فقيه، وقد فقه بالضم فقاهة، وفقهه الله. وتفقّه، إذا تعاطى ذلك. وفاقهته، إذا باحثته في العلم)^(٤).

(١) التوبة: ١٢٢.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: ١٣/٥٢٢.

(٣) الفراهيدي، العين: ٣/٣٧٠.

(٤) الجوهري، الصحاح: ٦/٢٢٤٣.

كما ورد في كتاب جمهرة اللغة (فقه الرجل يفقه فقهاً فهو فقيه والجمع فقهاء، وقالوا فقه في معنى الفقه أيضاً. وفقه عني أي فهم عني)^(١).

أما في الاصطلاح، فقد ذكره الجرجاني في تعريفاته بقوله: (هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية، وقيل: هو الإصابة والوقوف على المعنى الخفي الذي يتعلق به الحكم، وهو علم مستنبط بالرأي والاجتهاد، ويحتاج فيه إلى النظر والتأمل، ولهذا لا يجوز أن يسمى الله تعالى فقيهاً، لأنه لا يخفى عليه شيء)^(٢). وكذلك (هو العلم بالأحكام الشرعية الفرعية أو تحصيل الوظائف العملية عن الأدلة التفصيلية)^(٣).

واتفق الزركشي مع سابقه حيث قال: (وأما في اصطلاح الأصوليين فالعلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية)^(٤).

(١) ابن دريد، جمهرة اللغة: ٢٩ / ٢.

(٢) الجرجاني، التعريفات: ٤٥ / ١.

(٣) علي المشكيني، اصطلاحات الأصول: ١٨٠.

(٤) الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه: ١٥ / ١.

المطلب الأول:

تجربة الشيخ كاشف الغطاء (ت/١٢٢٨ هـ)

(هو الشيخ الأكبر جعفر بن الشيخ خضر الجناحي، علم الأعلام وسيف الإسلام، شيخ الفقهاء، صاحب كشف الغطاء)^(١).

(ولد في النجف الأشرف سنة ١١٥٦ من الهجرة النبوية كما صرح بذلك العلامة الطهراني في الطبقات، وزاد في الهامش: وقيل ١١٤٦ هـ وقيل ١١٥٤ هـ والصحيح ما ذكرناه، وقد صرح به حفيده الشيخ علي بن محمد رضا بن موسى بن جعفر وهو أعرف بولادة جدّه من غيره)^(٢).

وقد وصفه الشيخ النوري في المستدرک بقوله: (هو من آيات الله العجيبة التي تقصر عن دركها العقول، وعن وصفها الألسن، فإن نظرت إلى علمه فكتابه كشف الغطاء -الذي ألفه في سفره- ينبئك عن أمر عظيم، ومقام عليّ في مراتب العلوم الدينية، أصولاً وفروعاً)^(٣).

وكان الشيخ الأنصاري رحمه الله يقول ما معناه: (من أتقن القواعد الأصولية التي أودعها الشيخ في كشفه فهو عندي مجتهد)^(٤).

(وإن تأملت في مواظبته للسنن والآداب، وعباداته ومناجاته في الأسحار، ومخاطبته

(١) عباس القمي، الكنى والألقاب: ١٠١/٣.

(٢) آغا بزرك الطهراني، الكرام البررة: ٢٤٨/١.

(٣) حسين النوري، خاتمة المستدرک: ١١٧/٢.

(٤) عباس القمي، الكنى والألقاب: ١٠١/٣.

نفسه بقوله: كنت جعيفراً، ثم صرت جعفر، ثم الشيخ جعفر، ثم شيخ العراق، ثم رئيس الإسلام، وبكائه وتذللته، لرأيته من الذين وصفهم أمير المؤمنين عليه السلام من أصحابه للأحنف بن قيس....^(١).

وقال العلامة السيد محسن الأمين في كتابه أعيان الشيعة: (وقد انتهت إليه رئاسة الإمامية الدينية في عصره والزمنية في قطره، فهو الفقيه الأكبر مفتي الإمامية رجع إليه الناس وأخذوا عنه، ورأس بعد وفاة شيخه السيد مهدي بحر العلوم الطباطبائي سنة ١٢١٢ هـ واشتهر باعتدال السليقة في الفقه وقوة الاستنباط من الأدلة، فكان أعجوبة في الفقه ولقوة استنباطه اشتهر - من باب الملح - أن الشيخ جعفر عنده دليل زائد وهو دليل الشم وكان مع ذلك أديباً شاعراً)^(٢).

ومن جملة من تتلمذ الشيخ جعفر كاشف الغطاء على يديهم والده المكرّم الشيخ خضر (ت/ ١١٨٠ هـ) وهو أول مشايخه، وكذلك الآقا محمد باقر بن محمد أكمل المعروف بالوحيد البهبهاني (ت/ ١٢٠٥ هـ) والسيد مهدي الطباطبائي (ت/ ١٢١٢ هـ) والسيد صادق الحسيني الأعرجي النجفي المعروف بالفحام (ت/ ١٢٠٥ هـ) والشيخ محمد مهدي الفتوني العاملي النجفي والشيخ محمد تقي الدورقي النجفي (ت/ ١١٨٦ هـ)^(٣).

أمّا من تتلمذ عند الشيخ فهم جمعٌ غفيرٌ، نذكر جملةً منهم، وأبرز هؤلاء هم أنجال الشيخ الأربعة وهم: ولده الشيخ موسى النجفي (ت/ ١٢٤٢ هـ) والشيخ علي النجفي (ت/ ١٢٥٣ هـ) وولده الشيخ حسين كاشف الغطاء (ت/ ١٢٦٢ هـ) والذي انتهت إليه رئاسة الشيعة الإمامية، وكذلك الشيخ محمد كاشف الغطاء (ت/ ١٢٤٧ هـ).

(١) حسين النوري، خاتمة المستدرک: ١١٧/٢.

(٢) محسن الأمين، أعيان الشيعة: ١٠٠/٤.

(٣) ظ: جعفر كاشف الغطاء، كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء: ١٠-١٢.

كما تتلمذ على يديه الشيخ أسد الله الكاظمي (ت/ ١٢٢٠ هـ) والشيخ محمد حسن ابن الشيخ باقر النجفي -صاحب جواهر الكلام- (ت/ ١٢٦٦ هـ) والشيخ محمد تقي الأصفهاني (ت/ ١٢٤٨ هـ) صاحب حاشية المعالم، وكذلك الشيخ عبد الحسين الأعسم النجفي، والشيخ عبد علي بن أمير علي الرشتي الغروي (ت/ ١٢٢٦ هـ) والشيخ خضر بن شلال العفكاوي النجفي (ت/ ١٢٥٥ هـ) والسيد عبد الله الشبر الكاظمي (ت/ ١٢٤٢ هـ) والسيد باقر الحسيني القزويني (ت/ ١٢٤٦ هـ) والسيد صدر الدين العاملي (ت/ ١٢٦٣ هـ) والحاج محمد المشهدي (ت/ ١٢٥٧ هـ) والشيخ محمد بن إبراهيم الكلبي (ت/ ١٢٦١ هـ) وغيرهم من الفقهاء الذين استضاءوا من علمه رضوان الله عليهم^(١).

مكانته الاجتماعية ودوره في الإصلاح:

كانت للشيخ كاشف الغطاء الكبير مكانة اجتماعية سامية تشهد لها قضايا مهمة طوال حياته نشير إلى أهمها:

١. إذنه لفتح علي شاه القاجاري في أمر الدفاع عن حوزة الإسلام والمسلمين:

والذي اقتضاه أمور حدثت في عصره كثورة فرنسا الكبرى وهجوم نابليون ووقوع الحروب بين تزار روسيا وإيران واستحلالها مناطق من بلاد القوقاز، ومقاصدها التوسعية، استباق فرنسا والإنجليز إلى التسرب في دولة إيران والتحرّكات الداخلية تجاه الدولة المركزية، من ناحية بقايا الحكومات الأفشارية والزندية وأبناء ملوك القاجار، وتلف النفوس، وهتك الأعراض في الحروب الداخلية وغير ذلك^(٢).

وهاك عمدة المواضع التي تطرق إليها الشيخ الأكبر ونصوصها كما وردت في

(١) ظ: المصدر السابق: ١/١٢-١٩.

(٢) ظ: م، ن: ١/٢٤-٢٥.

الإجازة الموجودة في كتاب الجهاد من كتابه كشف الغطاء^(١).

١. (الإذن في إدارة الجيش وتدييره وتقوية الحكومة من حيث العدة والعدة للدفاع عن أراضي المسلمين وأعراضهم)^(٢).

وذلك بقوله: «ولما كان الاستئذان من المجتهدين أوفق بالاحتياط، وأقرب إلى رضا رب العالمين، وأقرب إلى الرقية، والتدلل والخضوع لرب البرية، فقد أذنت إن كنت من أهل الاجتهاد، ومن القابلين للنيابة عن سادات الزمان للسلطان ابن السلطان، والحقان ابن الخاقان، المحروس بعين عناية الملك المنان، فتح علي شاه أدام الله ظلالة على رؤوس الأنام، في أخذ ما يتوقف عليه تدير العساكر والجنود، ورد أهل الكفر والطغيان والجحود...»^(٣).

٢. (وجوب إطاعة السلطان في ذلك حيث أنه مأذون من قبل الحاكم الشرعي والفقهاء الجامع للشرائط)^(٤).

ونصّه (ويجب على من أتصف بالإسلام، وعزم على طاعة النبي والإمام عليه السلام أن يمتثلوا أمر السلطان، ولا يخالفوه في جهاد أعداء الرحمن، ويتبعوا أمر من نصبه عليهم، وجعله دافعاً عما يصل من البلاء إليهم، ومن خالفه في ذلك فقد خالف الله، واستحق الغضب من الله)^(٥).

٣. (توصية السلطان وعمّال الحكومة برعاية التقوى والعدل والمساواة والشفقة، وأن يكونوا للرعية كالأب الرؤوف والأخ العطوف)^(٦).

(١) ظ: المصدر السابق: ٢٥ / ١.

(٢) جعفر كاشف الغطاء، كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء: ٢٥ / ١.

(٣) م. ن: ٣٣٣ / ٤.

(٤) م. ن: ٢٥ / ١.

(٥) م. ن: ٣٣٤ / ٤.

(٦) م. ن: ٢٥ / ١.

وذلك بقوله: «وينبغي لسلطاننا -خَلَّدَ اللهُ ملكه- أن يوصي محلَّ الاعتماد، ومن جعله منصوباً لدفع أهل الفساد بتقوى الله، وطاعته، والقيام على قدم في عبادته، وأن يقسم بالسوية، ويعدل في الرعيّة، ويساوي بين المسلمين، من غير فرق بين القريب والغريب، والعدوّ والصدّيق، والخدام وغيره، والتابع وغيره، ويكون لهم كالأب الرؤوف، والأخ العطوف»^(١).

٤. (لزوم حفظ الأسرار وعدم إذاعتها للأغيار)^(٢).

ونصّ ذلك هو: (وأن لا يودع شيئاً من الأسرار إلا عند من يخاف من بطش الملك الجبار، فإن من لا يخاف الله لا يؤمن إذا غاب، وفي الحضور من الخوف يحافظ على الآداب)^(٣).

٥. (توظيف المعلمين لتعليم الصلاة ومسائل الحلال والحرام وأحكام العبادات ليجعلوا الجيش في زمرة حزب الله)^(٤).

حيث يقول: «يضع معلمين يعلمونهم قراءة الصلاة، والشكيات والسهويات، وسائر العبادات، ويعلمهم المحللات والمحرمات، حتى يدخلوا في حزب الله»^(٥).

٦. (إقامة الشعائر الإسلامية، وتعيين المؤذنين، وأئمة الجماعات والمحافظة على الصلاة والصيام في جيش المسلمين)^(٦).

بالقول: «وأن يُقيم شعائر الإسلام، ويجعل مؤذنين وأئمة جماعة في عسكر

(١) المصدر السابق: ٤ / ٣٣٤.

(٢) م. ن: ١ / ٢٥.

(٣) م. ن: ٤ / ٣٣٥.

(٤) جعفر كاشف الغطاء، كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء: ١ / ٢٥.

(٥) م. ن: ٤ / ٣٣٥.

(٦) م. ن: ١ / ٢٥.

الإسلام،..... ويأمرهم بالصلاة والصيام، والمحافظة على الطاعة والانقياد للملك العلام، وعلى أوقات الصلاة والاجتماع إلى الإمام»^(١).

٧. (نصب الوعّاظ العارفين باللغة الفارسيّة والتركيّة في صفوف الجيش، للوعظ وترويج مفهوم الشهادة في سبيل الله تعالى)^(٢).

ونصّ ذلك: (وينصب واعظاً عارفاً بالفارسيّة والتركيّة، يُبين لهم نقص الدنيا الدنيّة، ويرغبهم في طلب الفوز بالسعادة الأبدية، ويُسهّل عليهم أمر حلول المنية، ببيان أنّ الموت لا بدّ منه، ولا مفرّ عنه، وأنّ موت الشهادة فيه السعادة، وأنّ الميت شهيد حيّ عند ربّه، معفوّ عن إثمه وذنبه)^(٣).

٨. (وجوب قيام المجتهدين في مقام الجهاد الدفاعي عن حوزة الإسلام والمسلمين أو المأذون منهم)^(٤).

حيث قال: «و يجب تقديم الأفضل أو مأذونه في هذا المقام، ولا يجوز التعرّض في ذلك لغيرهم، ويجب طاعة الناس لهم، ومن خالفهم فقد خالف إمامهم، فإن لم يكونوا، أو كانوا ولا يمكن الأخذ عنهم ولا الرجوع إليهم، وجب على كلّ بصير صاحب رأي وتدبير، عالم بطريق السياسة عارف بدقائق الرئاسة، صاحب إدراك وفهم، وثبات وجزم وحزم، أن يقوم بأحمالها، يتكلّف بحمل أثقالها، وجوباً كفاً مع مقدار القابلين، فلو تركوا ذلك، عوقبوا أجمعين، ومع تعيّن القابلية، وجب عليه عيناً مقاتلة الفرقة الشنيعة الروسيّة وغيرهم من الفرق العادية البغيّة، وتجب على الناس إيعانته ومساعدته إن احتاج إليهم* ونصرته، ومن خالفه فقد خالف العلماء الأعلام، ومن خالف العلماء

(١) ظ: م. ن: ٤ / ٣٣٥.

(٢) م. ن: ١ / ٢٥.

(٣) م. ن: ٤ / ٣٣٥.

(٤) م. ن: ١ / ٢٥.

الأعلام فقد خالف -والله- الإمام. ومن خالف الإمام فقد خالف رسول الله سيّد الأنام، ومن خالف سيّد الأنام فقد خالف الملك العلام^(١).

٢. دفاعه عن النجف في الحوادث الدّامية:

كحادثة الشمرت والزقرت المشهورة التي أخذت دوراً مهماً، وهي أعظم حادثة يحتفظ بها تاريخ النجف، ودافع الشيخ جعفر الأكبر عنها مع زمرة من أهل العلم الذين درّبهم على حمل السلاح والرمي، وقد كانت داره الكبيرة الشهيرة مذخراً للأسلحة وثكنة للجنود الذين قرّر لهم الرواتب ودرّبهم على القتال، فكان الشيخ جعفر ابن النجف البارّ وقائدها الروحي يرجع إليه في الملهمات والحوادث ويستغاث به عند النوازل^(٢).

(ولم تكن النجف يومذاك يطيب بها مسكن ولا يألّفها ساكن فهو بحزمه وعزمه وشدّة صولته ونفوذ أمره، كان يذبّ عن الضعفاء ويحرس الفقراء، فكان لهم حرزاً منيعاً وسوراً ربيعاً)^(٣).

(وقد قام الشيخ على تمصير النجف فبنى لها سوراً وأسكن بها جملة صالحة من بيوت العرب والعجم لدرس العلوم الدينية فيها، وتولى الزعامة الدينية وأصبحت له المرجعية العامة في التقليد وبلغ من حرصه على تقدم الثقافة ونموها أن استدعى جملة من المهرة في سائر العلوم للنجف وتصدى لصدهجمات الأعراب عليها، والتزم بإعاشة الطلاب فيها حتى اشترى لهم الدور والمساكن وبذل لهم حتى مصارف الأعراس فضلاً عن اللوازم والضرورات)^(٤).

(١) * في المصدر: احتاجهم. جعفر كاشف الغطاء، كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء:

٣٣٣/٤.

(٢) ظ: أغا بزرك الطهراني، الكرام البررة: ١/ ٢٥١.

(٣) باقر آل محبوبه، ماضي النجف وحاضرها: ٣/ ١٣٨.

(٤) علي كاشف الغطاء، أدوار علم الفقه وأطواره: ١١٨.

٣. تحريضه على الوهابيين:

بعد ظهور بدعة محمد عبد الوهاب وانتشار مذهب الوهابية في طائفة عنزة، اعتنق هذا المذهب سعود بن عبد العزيز، وبه عظمت شوكة الوهابيين وكانت لهم هجمات وحشية على العراق فضربوا في الهمجية والوحشية الرقم القياسي، فوحشيتهم تنفر منها حتى آكلة لحوم البشر، كل ذلك عداوة ونفورا عن الحق ودليله وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وطالما عانت منهم العتبات المقدسة الأمرين سفك الدماء ونهب الأموال، فقد عاثوا في كربلاء المقدسة كما خلده التاريخ بالدم القاني، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا في النجف ما فعلوه في غيرها ببركة الشيخ جعفر وأمثاله فقد هبّ مجالداً عن النجف بنفسه وأولاده والخاصة من تلاميذه، فكان للنجف سوراً حديدياً قد دفعهم عنها مرات عديدة حتى اندحروا خائبين وتفرقوا خاسئين^(١).

ففي سنة ١٢١٧ هـ غار عبد العزيز الوهابي على الحرمين الشريفين النجف وكربلاء وقتل جماعة من العلماء والمجاورين، ولما بلغ أهل النجف نبأ توجهه إلى البلدة، وأنه قاصد مهاجمتها، فأول ما فعلوه أنهم نقلوا خزانة الأمير عليه السلام إلى بغداد خوفاً عليها من النهب كما نهبت خزانة الحرم النبوي، ثم أخذوا بالاستعداد له والدفاع عن وطنهم وحياتهم، وكان القائم بهذا العبء والمتكفل شؤون الدفاع هو العلامة الزعيم الشيخ جعفر، وساعده بعض العلماء، فأخذ بجمع السلاح، وبجلب ما يحتاج إليه في الدفاع، فما كانت إلا أياماً حتى ورد الوهابي بجنوده ونزل النجف ليلاً، فبات تلك الليلة، وعزم على أن يهجم على البلدة نهراً، ويوسع أهلها قتلاً ونهباً.

وكان الشيخ قد أغلق الأبواب، وجعل خلفها الصخور والأحجار، وكانت الأبواب يومئذ صغيرة، وعين لكل باب عدداً من المقاتلين، وأحاط باقي المقاتلين بالسور من داخل البلدة، وكان السور يومئذ واهي الدعائم، بين كل أربعين أو خمسين ذراعاً

(١) ظ: جعفر السبحاني، موسوعة طبقات الفقهاء: ١٣ / ٦٧.

منه قوله أي حصار، وكان قد وضع في كلِّ قوله ثلثة من أهل العلم شاكين بالسلاح، فكان جميع ما في البلدة من المقاتلة لا يزيدون على المائتين؛ لأنَّ أغلب الأهالي خرجوا هارين حين سمعوا بتوجه العدو، واستجاروا بعشائر العراق، فلم يبقَ مع الشيخ إلا ثلثة من مشاهير العلماء، كالشيخ حسين نجف، والشيخ خضر شلال، والسيد محمد جواد صاحب مفتاح الكرامة، والشيخ مهدي ملا كتاب، وغيرهم من المشايخ الأخيار. وكان الشيخ وأصحابه قد وطَّأوا أنفسهم على الموت لقلَّتْهم وكثرة عدوِّهم، فاستغاثوا بأمر المؤمنين عليه السلام، واستجاروا بحامي الجار، فأجارهم وهزم المنافقين وشتت شملهم، وما أصبح الصباح إلا وهم قد انجلوا عن البلدة المشرفة وتفرَّقوا.^(١)

ويذكر ذلك العلامة السيد محمد جواد العاملي في كتابه مفتاح الكرامة حيث يقول: (وفي سنة ١٢٢١ هـ في الليلة التاسعة من شهر صفر قبل الصبح بساعة هجم علينا في النجف الأشرف ونحن في غفلة، حتى أن بعض أصحابه صعدا السور وكادوا يأخذون البلد، فظهرت لأمر المؤمنين عليه السلام المعجزات الظاهرة، والكرامات الباهرة، فقتل من جيشه كثير ورجع خائباً، وله الحمد على كلِّ حال)^(٢).

٤. موقفه أمام الإخباريين:

ناهض الشيخ الأكبر عليه السلام الإخباريين ورأسهم في ذلك العصر الميرزا محمد الإخباري أكبر خصوم العراق الأصوليين، بعد أن تمكن من نشر دعوته واستلفت إليها أنظار الناس خصوصاً في إيران حيث انتظر تغلب مذهب الإخباريين، فخرج الشيخ من أجل ذلك إلى الريّ وبلاد الجبال وألف رسائله الشهيرة في الرد عليهم، وأهدى بعضها إلى فتح علي شاه القاجاري سنة ١٢٢٢ هـ، وكان شيخ الإخبارية المتقدم قد اتصل به وألف له الرسائل فلم يزل الشيخ كاشف الغطاء إلى أن قضى على هذه الحركة^(٣).

(١) ظ: جعفر كاشف الغطاء، كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء: ١/ ٣٠-٣١.

(٢) محمد جواد العاملي، مفتاح الكرامة: ١٧/ شرح صفحة ١٨٨.

(٣) ظ: محسن الأمين، أعيان الشيعة: ٤/ ١٠١.

(وله كتاب (الحقّ المبين) في الردّ على الإخباريين، ورسالة لطيفة في الطعن على الميرزا محمد عبد النبي النيسابوري، الشهير بالإخباري، سمّاها أيضاً بـ (كشف الغطاء) عن معايب ميرزا محمد عدوّ العلماء، أرسلها إلى السلطان فتح علي شاه القاجاري، ودلّل فيها قبائح أفعال ذلك الرجل ومفاسد اعتقاداته الكفريّة، بما لا مزيد عليه وذلك حين التجأه إلى حريم ذلك الملك، خوفاً على نفسه الخبيثة وفراراً من أيدي علماء العراق)^(١).

(وقد أرّخها مخاطباً أهل طهران: ميرزا محمدكم لا مذهب له)^(٢).

(وفيها مخاطباً لذلك الرجل: اعلم والله أنّك نقصت اعتبارك، وأذهبت وقارك وتحمّلت عارك، وأجّجت نارك، وعرفت بصفات خمس هي أخسّ الصفات وبها نالتك الفضيحة في الحياة وتنالكَ بعد الممات: أوّلها: نقص العقل، ثانيها: نقص الدين، ثالثها: عدم الوفاء، رابعها: عدم الحياء، خامسها: الحسد المتجاوز للحدّ. وعلى كلّ واحد منها شواهد ودلائل لا تحفى عن العالم بل ولا الجاهل.... إلى آخر الرسالة)^(٣).

وفاته :

(توفي يوم الأربعاء عند ارتفاع النهار في ٢٢ أو ٢٧ رجب سنة ١٢٢٨ هـ كما في مستدركات الوسائل أو ٢٧ كما في روضات الجنات، ويدل عليه ما قيل في تاريخ وفاته - العلم مات بيوم فقدك جعفر - سنة ١٢٢٧ ودفن في تربته المشهورة في محلة العمارة بالنجف)^(٤).

(١) جعفر كاشف الغطاء، كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء: ٣١-٣٢.

(٢) محسن الأمين، أعيان الشيعة: ٤/١٠٤، جعفر كاشف الغطاء، كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء: ٣١/١.

(٣) محسن الأمين، أعيان الشيعة: ٤/١٠١، جعفر كاشف الغطاء، كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء: ٣٢/١.

(٤) محسن الأمين، أعيان الشيعة: ٤/٩٩.

المطلب الثاني :

تجربة الشيخ النائيني (ت / ١٣٥٥ هـ)

(الشيخ الميرزا محمد حسين ابن شيخ الإسلام الميرزا عبد الرحيم النائيني النجفي، مجتهد خالد الذكر من أعظم علماء الشيعة وأكابر المحققين)^(١).

ينتمي إلى أسرة معروفة في بلاده- بلدة نائين إيران- وكان أبوه يلقب بشيخ الإسلام في أصفهان وهو لقب سلطاني وكذلك آباؤه من قبله، وبعد وفاته لقب به أخوه الأصغر، أمّا هو فكان شيخ الإسلام بحق لا بفرمان سلطاني^(٢).

ولد في نائين- بلدة من نواحي يزد- تبعد عنها عشرين فرسخاً وتتبع إدارياً إلى أصفهان سنة ١٢٧٧ هـ/ ١٦٨٠ م وتوفي يوم السبت ٢٦ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ هـ/ ١٩٢٦ م عن عمر تجاوز الثمانين سنة في بغداد وحمل جثمانه إلى النجف في الحجرة الخامسة على يسار الداخل الى الصحن الشريف من باب السوق الكبير)^(٣).

(كان عالماً جليلاً فقيهاً أصولياً حكيماً عارفاً أديباً متقناً للأدب الفارسي عابداً مدرساً مقلداً في الأقطار)^(٤).

وقد تعلم المبادئ وبعض أوليات العلوم في بلدة نائين ثم هاجر إلى أصفهان فأكمل بها المقدمات وقرأ على أساتذة العلم هناك، وفي سنة ١٣٠٣ هـ هاجر إلى العراق مع

(١) محمد علي كمال الدين، النجف في ربع قرن منذ ١٩٠٨: ٤٤٩.

(٢) ظ: م. ن: ٤٤٩، ظ: محسن الأمين، أعيان الشيعة: ٥٤/٦.

(٣) ظ: محمد علي كمال الدين، النجف في ربع قرن منذ سنة ١٩٠٨: ٤٤٩-٤٥٢، ظ: محسن

الأمين، أعيان الشيعة: ٥٤/٦.

(٤) محسن الأمين، أعيان الشيعة: ٤٥/٦.

السيد محمد باقر الدرهمجي فثرفا معاً إلى سامراء، ثم ذهب السيد إلى النجف فتتلمذ على الميرزا حبيب الله الرشتي وبقي يحضر بحث السيد إسماعيل الصدر، والسيد محمد الفشاركي الأصفهاني، ثم حضر في بحث السيد المجدد الشيرازي، وفي الأواخر صار كاتباً ومحرفاً له ولم ينقطع عن بحث الأصفهاني وبقي ملازماً لبحث المجدد حتى توفي سنة ١٣١٢ هـ، كما بقي ملازماً للسيد الصدر إلى سنة ١٣١٤ هـ التي هاجر فيها إلى كربلاء فصحبه أيضاً وبقي معه عدة سنين^(١)، ثم رأى الشيخ النائيني أن عاصمة العلم هي النجف الأشرف فشد الرحال إليها^(٢).

وكان الشيخ محمد كاظم الخراساني قد استقل بالتدريس على عهد السيد المجدد ولما توفي زاد تلامذته وعظم شأنه وأصبحت بين الشيخ النائيني وبينه رابطة أكيدة واختصاص وثيق، وصار من أعوانه وأنصاره في مهماته الدينية والسياسية كما صار من أعضاء مجلس الفتيا الذي كان يعقده في داره مع بعض خواصه من أصحابه للمذاكرة في المسائل المشككة أوان تأليفه حاشية (نجات العباد) ولم يحضر معه درسه العام؛ لأنه كان غنياً عنه وشأنه أرفع من حضاره^(٣).

(واتفق أن حدث أمر النهضة وتبديل حكومة إيران الاستبدادية إلى الدستورية، وكان زعيم هذه النهضة الشيخ محمد كاظم الخراساني وذلك في سنة ١٣٢٤ هـ، فوقف معه جنباً إلى جنب لأنه كان يرى رأيه، وكان يومذاك من أكبر الدعاة إليها وألف بالفارسية كتابه الموسوم بـ (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) طبع سنة ١٣٢٩ هـ، وقرضه كل من الخراساني والشيخ عبد الله المازندراني وغيرهما، وبذلك برز بين الجموع بشكل رائع

(١) ظ: محسن الأمين، أعيان الشيعة: ٦/٥٤، ظ: محمد علي كمال، النجف في ربع قرن منذ سنة

١٩٠٨-٤٤٩-٤٥٠.

(٢) محمد حسين الصغير، قادة الفكر الديني والسياسي في النجف الأشرف: ٥٥.

(٣) آغا بزرك الطهراني، نقباء البشر: ١/٥٩٣-٥٩٤.

وتعرفت به الطبقات كلها^(١).

وبعد وفاة الخراساني استقل بالتدريس وازدادت حوزته في عهد شيخ الشريعة، ولما انتقل الأخير إلى جوار ربه سنة ١٣٣٩ هـ ارتفع ذكر الشيخ النائيني وقلده كثير من أهل البلاد البعيدة^(٢).

(وفي الثورة العراقية كان أحد الموقعين على مضبطة توكيل مندوبي النجف في ١٨ رمضان ١٣٣٨ هـ)^(٣).

ولما تم احتلال العراق على يد الإنكليز، وحينما توج الملك فيصل الأول ملكاً على العراق في آب/ ١٩٢١ م في ضل الاحتلال البريطاني، وقرروا فتح مجلس نيابي وتعيين وزراء، وكان الانتداب قد رشح عبد الرحمن النقيب لرئاسة الوزراء فيما يسمى بالاستقلال، فكان هو والسيد أبو الحسن الأصفهاني والشيخ مهدي الخالصي والسيد محمد الفيروزآبادي معارضين في أمر الانتخابات، وقد حرّم هؤلاء جميعاً المشاركة في الانتخابات التي يسيّرهما الاحتلال البريطاني، واتفق أن نفي الخالصي إلى إيران وقامت الشيعة بالاحتجاجات، وتضامناً مع الخالصي وقياماً بالتكليف الشرعي فقد قرّر الميرزا النائيني والسيد أبو الحسن مغادرة العراق احتجاجاً على نفي الشيخ الخالصي، فغادره وبمعيّتهم ثلاثمائة من علماء وأساتيد وطلبة الحوزة العلمية في النجف الأشرف وكربلاء المقدسة^(٤).

كان هذا القرار قد أحدث ضجة كبرى في العراق، فهؤلاء المغادرون هم قادة التحرير للبلاد، وقامت المظاهرات في جنوب العراق والفرات الأوسط والكاظمية

(١) محمد علي كمال الدين، النجف في ربع قرن منذ ١٩٠٨: ٤٥٠.

(٢) ظ: م. ن: ٤٥٠.

(٣) م. ن: ٤٥٠.

(٤) ظ: م. ن: ٤٥٠-٤٥١، ظ: محمد حسين الصغير، قادة الفكر الديني والسياسي في النجف

الأشرف: ٧٧-٧٨.

المقدسة والمشاهد المشرفة، وبعد تسعة أشهر اضطرت الحكومة إلى إرسال وفد لمفاوضة العلماء لتهدئة الأوضاع واستتباب الأمن، فعاد الميرزا النائيني والسيد أبو الحسن إلى النجف الأشرف لرعاية شؤون الحوزة العلمية، واتجه الميرزا اتجهاً متكاملاً لإعداد الجيل الناهض لحمل الرسالة بأمانة وإخلاص^(٥).

وآراء الميرزا السياسية ترجمها في كتابه (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) وقد كشف فيه عن الرأي التشريعي للإسلام في أنظمة الحياة السياسية وإدارة شؤون الدولة وقد جاء هذا الكتاب في: تمهيد ومقدمة وخمسة فصول: تحدّث في التمهيد بلغة سلمية عن تأريخ الحروب الصليبية ومقاومتها للإسلام والمسلمين وأثبت فشلها سياسياً وعسكرياً، ثم بيّن ابتعاد المسلمين عن الكتاب والسنة وسيرة أهل البيت عليهم السلام ومن ثم استعادة وعيهم بفضل مراجعتهم وشعورهم بالمسؤولية لاستعادة حريتهم وتقرير مصيرهم، ثم جاءت المقدمة حافلة بتحليل حقيقة الاستبداد ومشروعية ودستورية الدولة والتدليل على أصالة الدستور ومجلس الشورى الوطني وتوضيح معنى الحرية والمساواة، كل ذلك بأسلوب رفيع وذهنية عالية، ثم كان الفصل الأول في التدليل العلمي أنّ جعل السلطة كان ولاية وإنّ تحويلها إلى التمليلية من بدع الطواغيت والظالمين وفيه مقامان: الأول: في أصالة تحديد السلطة شرعاً، والثاني: في درجة محدودية السلطة، حيث بيّن في المقام الأول أنّ السلطة ولاية -كالولاية على الوقف مثلاً- والقيام بأمر الولاية مختلف عن القيام على الملك الشخصي، فتصرف الولي في موضوع الولاية مشروط بقصد الوفاء بأغراضها المحددة، فممارسة السلطة هي ولاية على حفظ نظام البلاد وصيانة مصالحها وهي متوقّفة على النصب الإلهي، ومن الثابت لدينا أنّ أصل السلطة في الإسلام بل في جميع الشرائع السماوية السابقة يرجع إلى باب الأمانة والولاية، وفي المقام الثاني بيّن تحديد السلطة الإسلامية يكون بما لا يصل إلى الاستفراد والعمل بالهوى

(٥) محمد حسين الصغير، قادة الفكر الديني والسياسي في النجف الأشرف: ٧٨.

الشخصي والاستثمار والمنع من اشتغال أصحابها بغير أغراضها المجعولة لها أصلاً وهذا غير ممكن إلا مع تمتع الولي بملكمة العصمة^(١).

وكان الفصل الثاني خاصاً في بيان التكليف الشرعي في عصر غيبة الإمام عليه السلام، وذهب فيه أن الولايات النوعية (العامة) التي تحمل عدم رضا الشارع بأعمالها في زمن الغيبة تندرج تحت عنوان (الوظائف الحسبية) وإن قيام فقهاء عصر الغيبة بها نيابة عن المعصوم من الثوابت ومن قطعيات المذهب^(٢).

(وكان الفصل الثالث يدور في فلك متطور في العرض والأسلوب في المشروطة في ركنيها (الحرية والمساواة) الوسيلة المتيقنة والمأمونة لتحديد السلطة في ثلاثة مطالب: الأول: بحث الشورى مع ملاحظة أن الأحكام الشرعية خارجة عن مقام الشورى وخروجها من باب التخصص والتخصيص، وأن النبي صلى الله عليه وآله كان يشاور في الأمور العامة وقد يستفاد من الروايات موافقته على رأي الأكثرية)^(٣).

(المطلب الثاني: معالجة الحال في الظروف الراهنة المحرومة من الحضور المبارك للمعصوم والابتلاء بالجهلة والظلمة والفاستدين وأن التكليف الشرعي يقضي بحفظ الحد الأدنى المتفق عليه بين الأمة، وهو تحديد السلطة وحفظ أساس الحكم الشوروي بإقامة الهيئة المسددة لسياسة الحاكم والرادعة له عن ارتكاب الآثام والمظالم)^(٤).

والمطلب الثالث: تحدّث عن إحلال الهيئة المسددة وهو القدر الممكن في غياب المعصوم كما عليه أصول مذهبنا والركن الأعظم للقيام بهذه المهمة في ترتيب دستور

(١) ظ: محمد علي كمال الدين، النجف في ربيع قرن منذ ١٩٠٨-٤٨٣-٤٨٦، ظ: محمد حسين الصغير، قادة الفكر الديني والسياسي في النجف الأشرف: ٨٠-٨١.

(٢) ظ: محمد حسين الصغير، قادة الفكر الديني والسياسي في النجف الأشرف: ٨١.

(٣) م. ن: ٨١.

(٤) م. ن: ٨٢.

الدولة، وهذا المطلب لا يتحقق إلا بقيام النظام على الأصلين المهمين في الموضوع وهما: الحرية والمساواة^(١).

(وكان الفصل الرابع في ردّ الشبهات وموارد الاعتراض -مما لا أساس له- في أفكار الطواغيت والظلمة والمستبدين كمسألتي الحرية والمساواة ومسألة الدستور الخاصة، وقد تكفل بنقض ما أبرموا وردّ جميع المغالطات في بيان معنى البدعة أولاً، وبيان تصنيف الواجب إلى واجب بالذات وواجب لغيره، وذلك لتفنيد الإدّعاءات القائلة بأنّ التقيد بالدستور تشريع في قبال التشريع)^(٢).

(وكان الفصل الخامس غنياً بالإفاضة في شرائط صحّة ومشروعية تدخل النواب في الأمور السياسية وبيان وظائفهم وما ينبغي توفره لكل عضو من أعضاء مجلس الشورى من العلم والنزاهة والحرص على الدين والوطن، ومن ثمّ مسؤولية التصويت لأكفاء المرشحين لعضوية المجلس، ثمّ عرض لوظائف ممثلي الأمة الأساسية وحصرها في ثلاث:

١. في الأموال العامّة، مواردها ومصارفها.

٢. تقنين القوانين ومطابقتها بأحكام الشريعة المقدسة على أحكام منصوص عليها، وعلى الشورى في ترجيحات الولاية والعَمال والنواب العامّين والمأذونين.

٣. تقسيم قوى الدولة وعمّالها^(٣).

أمّا الخاتمة فقد كانت في مقصدين مهمّين:

الأول: في استقصاء قوى الإستبداد.

(١) ظ: المصدر السابق: ٨٢.

(٢) م. ن. ٨٢.

(٣) محمد حسين الصغير، قادة الفكر الديني والسياسي في النجف الأشرف: ٨٣.

والثاني: في علاج تلك القوى ومكافحة تلك الظواهر^(١).

ويعكس الميرزا في هذا الكتاب شخصيته السياسية الدينية العميقة الجذور في استكناه البعد السياسي والتشريعي للحياة الدستورية، بما أعجب به كبار رجال السياسة وصانعو القرار^(٢).

(١) ظ: المصدر السابق: ٨٣.

(٢) ظ: م. ن: ٨٣.

المطلب الثالث:

تجربة السيد محسن الحكيم (ت / ١٣٩٠ هـ)

(هو السيد محسن بن السيد مهدي بن السيد صالح بن السيد أحمد بن السيد محمود ابن السيد إبراهيم بن الأمير السيد علي الحكيم الطباطبائي النجفي، ينتهي نسبه الشريف إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام)^(١).

(ولد في يوم عيد الفطر عام ١٣٠٦ هـ الموافق ١٨٨٩ م، وفقد أباه وهو في السادسة من عمره، فتكفل رعايته أخوه الأكبر الحجّة السيد محمود الحكيم)^(٢).

وقد توفي تت في ٢٦ ربيع الثاني ١٣٩٠ هـ الموافق ١ حزيران ١٩٧٠ م، على أثر إصابته بسرطان المثانة وكان عمره الشريف أربعة وثمانين عاماً، وقد دفن في النجف الأشرف في المقبرة التي أعدها السيد لنفسه في مكتبته العامّة المجاورة لمسجد الهندي^(٣).

نشأ السيد محسن الحكيم طالباً في الحوزة العلمية في النجف الأشرف، وكان جمّ النضال والتضحية في شبابه، ومثال الجدّ والاجتهاد والقدسية في كهولته، ورمز الثبات والصبر والورع في شيخوخته، وقد امتد نضاله العقائدي في العقد الأول من القرن العشرين، وصاحبه وقد تجاوز الثمانين في حركة دائمة استوعبت كل حياته، ففي نضرة شبابه اصطحب السيد محمد سعيد الحبوبي، فكان كاتم سرّه، ومستشاره الخاص، ومؤتمن بيت مال المجاهدين، وفي أوّل شبابه حتى كهولته انكبّ على التحصيل العلمي

(١) محمد حسين الصغير، أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف: ٨٦.

(٢) م. ن: ٨٦.

(٣) م. ن: ١٦٢-١٦٤.

المتطوّر، وخاض في كهولته عباب معارف أهل البيت عليهم السلام فقهاً وأصولاً وحديثاً وعمقاً ودراية، وأنجز (مستمسك العروة الوثقى) وهو موسوعته الفقهية الاستدلالية الكبرى التي عزّ نظيرها منذ أن وضع الشيخ الأكبر الشيخ محمد حسن الجواهري النجفي (ت/ ١٢٦٦ هـ) (جواهر الكلام) وقد توجّها الإمام الحكيم بعد قرن بهذا العمل الجبار الذي لا ينهض به إلا أفاضال الرجال^(١).

وفي عنفوان كهولته المباركة كان محطّ الأنظار في زعامة الإمامية في العالم، ثم عاد المرجع الأعلى طيلة ربع قرن من الزمان، وكان يمتاز بخصائص مرجعية فائقة أبرزها: توحيد الكلمة، وشجب الطائفية والعرقية، ورعاية العلم والعلماء، والاهتمام بعنصر الشباب في إدارة شؤون الأمة، وفي السلوك الذاتي تجده معظماً لأهل الدين، رؤوفاً بالمؤمنين، عطوفاً على الفقراء، يلبي حاجة ذوي الخصاصة دون تمييز، وفي المسلك المرجعي تتطلّع إلى السمات الروحاني الهادئ يضع الأمور في مواقعها، ويدير الشؤون بموازينها، صلب العقيدة لا يتزلزل، قوي الشكيمة لا يتخاذل، يقابل المحن والشدائد بصبر وأناة، ويعالج المشكلات بحكمة وروية^(٢).

تنقل الإمام الحكيم رحمته في حياته الدراسية الحافلة، بعد أن اتقن المقدمات على يد أخيه الأكبر المقدّس الورع الحجّة السيّد محمود الحكيم، وعلى آخرين، وتفوّغ للدراسات العليا والبحث الخارج فقهاً وأصولاً ودراية على أشهر علماء عصره من أساطين المعرفة الإنسانية الشاملة، وأبرزهم: المولى الشيخ محمد كاظم الخراساني المعروف بالآخوند، الشيخ آقا ضياء الدين العراقي، الشيخ علي باقر الجواهري النجفي، الشيخ ميرزا محمد حسين الغروي النائيني، السيّد محمد سعيد الحبوبي^(٣).

(١) المصدر السابق: ٨٧.

(٢) ظ: محمد حسين الصغير، أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف: ٨٧-٨٨.

(٣) ظ: م. ن: ٨٩.

عرف السيد الحكيم رحمته بالسلوك العرفاني الذي اكتسبه من خلال صحبته للسيد محمد سعيد الحبوبي حيث نوه الأخير بمكانة السيد الحكيم، فقد كان يقربه ويدنيه ويستشيريه، وينبّه الحوزة العلمية على منزلته السلوكية في الأخلاق والورع والتقوى، ويشير إلى مميّزاته في علمي الفقه والأصول، ويقدمه على من هو أكبر منه سناً، ويعتبره مستشاره الأوّل، فالحبوبي من علماء السلوك والرياضة والعرفان، وكانت تجارب السيد في هذه الصحبة السلوكية تفرّغ شحناتها في شخصية السيد الحكيم الذي برز فيما بعد مضافاً إلى مرجعيته الكبرى مثلاً للسلوك العرفاني والمدرسة الإلهية في تربية الذات وتقويم النفس، وتحصيل الكمالات، ومخالفة الهوى، ومجاهدة الآمال، وهذا ممّا يرتفع بمستوى الروح إلى درجة الصديقين والشهداء والصالحين^(١).

استمرت مرجعية السيد الحكيم رحمته طيلة خمسة وثلاثين عاماً، وبدأت لدى وفاة أستاذه الأعظم الميرزا محمد حسين الغروي النائيني، حيث شرع السيد الحكيم بالصلاة جماعة في مصلاه بالصحن الحيدري الشريف، وكان له آنذاك جملة من المقلدين في بغداد والنجف الأشرف وبعض قصبات العراق^(٢).

وقد تدخل السيد الحكيم رحمته في الحياة السياسية؛ لأن الشعب يتطلب من المرجع ذلك ويتطلّع إلى استنقاذ حقوقه من الحاكمين، وكان الإمام الحكيم رحمته في هذا المضمار يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويناشد الحاكمين العدالة الاجتماعية، ويشجب الطائفية والإقليمية، ويريد للشعب أن يتمتع بخيرات البلاد على حدّ سواء، كما أنّه سلك طريق النضال من أوسع أبوابه، فكان العلم المناضل والبطل المجاهد منذ أوّل شبابه حتى وفاته، فقد ناهض الإنكليز بمعيّة السيد الحبوبي والعلماء الأعلام عام ١٩١٤ م، لكنهم انسحبوا نتيجة جهل القيادة العثمانية، وخيانة بعض المترعّمين

(١) ظ: المصدر السابق: ٩٢.

(٢) م. ن: ٩٤.

العشائريين، واعتزلوا النضال إلى حين، واعتبروا ثورة العشرين فاشلة نتيجة خبرتهم بخيانة بعض الرؤساء والمشايخ وأميري الكويت والمحمرة وعدم الخبرات المتكافئة بين الإنكليز وعشائر العراق، فاتَّجِه السيد الحكيم إلى النضال العلمي، فأكبَّ الليل والنهار على الدرس والتدريس والمحاجة والمناظرة والبحث والتنقيب حتى أشير إليه بالبنان^(١).

وبعد تتابع الأحداث في العراق كان السيد محط نظر الاستشارة الصائبة والرأي الصحيح، وبدأ الوعي الجماهيري بالانفتاح على مرجعية السيد الحكيم، وعندها أنيطت به مهمات مضافاً للمهمات المرجعية العليا، فكان للبعد السياسي نصيب من وقته الثمين، وأبرز الأمور التي تدخل السيد الحكيم لمعالجتها والتي أخذت مساحة واسعة في المجتمع هي (الشيوعية) أو ما يسمّى بالمدّ الأحمر والتي بلغت أوج عظمتها في زمن عبد الكريم قاسم، فبعد الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ اشتدت الأزمات السياسية في العراق وانقسم الشعب العراقي إلى اتجاهات متعددة في الانتماء الفكري والعقائدي، وتصاعد المدّ الأحمر بشكل يندّر بالخطر، وأطلق الشيوعيون في وسائل إعلامهم شعار: الدين أفيون الشعوب، وهو مقولة كارل ماركس عن المسيحية، فكان تحدياً للإسلام وعلماء الدين ومؤسساته، بل قبلتة تدعو إلى الإلحاد، ورفض الدين من أساسه، وبلغ بهم الأمر أنهم صوروا كل متدين على أنه مجرم، لأنه يعيق تقدم المجتمع، أما طلبة العلم فهم -بزعمهم- من بقايا البرجوازية والإقطاع الرأسمالي، ومن بقايا الدين الذي يخذر الشعب ويمنعه من التقدم والثورة على الإقطاع، وانتقدوا حتى وجود المساجد والمشاهد المشرفة، خاصة مناراتها وأبوابها المذهبة، فكتبوا على جدار صحن مشهد أمير المؤمنين عليه السلام: من أين لك هذا؟!.

وبلغ من جرأتهم أنّ صاحب دكان مجاور لمنزل السيد محسن الحكيم عليه السلام، كان إذا

(١) ظ: محمد حسين الصغير، أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف: ١٣١-١٣٣.

خرج السيّد رفع صوت المذيع في دكّانه بأناشيد الشيوعيين، فإذا وصل السيّد رفع صوته: عفلقي عفلقي، أي: بعثي من جماعة ميشيل عفلق، وكان ذلك اتهامهم الجاهز لمن لا يحب عبد الكريم، وكان من شعاراتهم: ولما يصفك عفلقي، والحبال موجودة، أي: من لم يصفق للزعيم فهو بعثي، والحبال حاضرة لسحله في الشوارع^(١).

وهنا جاءت فتوى السيّد الحكيم في تحريم الشيوعية في ٢٢ شعبان ١٣٧٩ هـ، وكان نصّها: (لا يجوز الإنتماء إلى الحزب الشيوعي، فإنّ ذلك كفر وإلحاد، أو ترويج للكفر والإلحاد، أعاذكم الله وجميع المسلمين عن ذلك، وزادكم إيماناً وتسليماً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)^(٢).

وبهذا يتضح الدور الكبير الذي اداه السيّد الحكيم في الحفاظ على المجتمع والأخلاق والدين والحياة.

(١) ظ: علي الكوراني العاملي، إلى طالب العلم: ١٢٧.

(٢) محمد حسين الصغير، أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف: ١٣٨.

المبحث الثاني :

سيرة السيّد السيستاني (دام ظلّه) وإنجازته المعرفي

توطئة : السيّد السيستاني إطلالة على سيرته :

قد لا تقدر الكلمات المتناثرة والجمل المتناسكة على رسم الصورة الجلية والحقيقية لساحة السيّد السيستاني (دام ظلّه)، ولكنها بالتأكيد قد تقربها لتكشف النقاب عن هذه الشخصية الفذة والتميزة التي تمكنت بفضل ما تمتلكه من صفات ومؤهلات من رجاحة العقل وصفاء الذهن أن تكون من بين الشخصيات القلائل التي شكّلت مفصلاً يستدعي التوقف عنده والبحث في طبيعة ومكونات هذا العالم الكبير الذي يتمتع بخصائص روحية ومثالية عالية طالما حثّ عليها أهل البيت عليهم السلام حيث جعلت منه عالماً ربانياً بكل ما تعنيه الكلمة^(١).

السيستاني (دام ظلّه) أشعل بصمته وحواره وسلامه وخلقه وتواضعه الجمّ قناديل النصر، أيقظ ضمير الأمة، جعل الفجر ينهض كسرب الحمام، استبدل الزمن السيئ بزمن الكرامة، زرع حقوق الأجيال بثياب القرنفل، أعاد للمصاييح المنطفئة أنوارها.

السيستاني (دام ظلّه) في مجلس الفقهاء تراه الفقيه الأروع الصائب المسدّد، وفي الأخلاق الفاضلة معلماً صديقاً أميناً مجدّداً، وفي السياسة سهماً ورمحاً وسيفاً مهنداً يأتي إليه الساسة ليأخذوا الدروس والعبر والمواعظ والإرشاد من سياسته الحكيمة، وفي الحوار تراه الرجل المحاور من الطراز الأول، وفي اللاعنف والسلام تراه كيف يحوّل البارود إلى رماد ورميل مفروش بالسلم والأمان.

(١) ظ: حسين محمد علي الفاضلي، الإمام السيستاني أمة في رجل: ٩.

هذا هو السيّد السيستاني الذي تخرج من تلك المدرسة التي كانت سحابة تسقي الأرواح بمزن الربيع وشلال فكر يمزق حجب الظلام، ليقول العالم أنه تخرج من مدرسة باب مدينة علم الرسول ﷺ تلك المدرسة التي تقول: «علمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب»، إنها مدرسة وحوزة العلم والعلماء (النجف الأشرف).

هذا السيّد الذي مع كل ما جرى في العراق منذ سقوط النظام الصدامي فإنه يبقى أظهر من كل ألعيب الساسة والقادة، وفوق الاتجاهات والميول، ولطالما أكد ويؤكد حرصه على الجميع ورفضه لمحاباة زيد أو عمر، فهو أبو العراقيين بعربهم وعجمهم، بشيعتهم وسنتهم، بمسلميهم ومسيحيهم وصابنتهم، بمؤمنيهم وملحدتهم، الخيمة التي يستظل بها الجميع، وهو ذو القلب الرحيم الكبير والعقل النير الحكيم، وسيبقى عصياً على الانتهازيين والفاشليين وسدّاً منيعاً بوجه كل المؤامرات التي تحاك ضدّ العراقيين وصمام الأمان في صراع الإرادات الوافدة على أرض الأنبياء والأوصياء^(١).

(١) ظ: المصدر السابق: ١٤ ١٥.

المطلب الأول:

اسمه ونسبه ومميزاته

(السيد علي بن السيد محمد باقر بن السيد علي الحسيني السيستاني النجفي، ينتهي نسبه إلى الإمام الحسين بن أمير المؤمنين عليه السلام، ولد في ٩ ربيع الأول ١٣٤٩ هـ / ١٩٣٠ م، اشتهر بلقب السيستاني تبعاً لجدّه الأعلى السيد محمد الذي تعيّن في منصب (شيخ الإسلام) في سيستان في عهد السلطان الصفوي، وإلا فهو من الذرية الحسينية التي استوطنت أصفهان فراراً من سطوة الظالمين، فلما انتقل السيد محمد إلى سيستان هو وآله وذووه أطلق لقب السيستاني على ذريته من بعده)^(١). وقد ولد السيد في المشهد الرضوي الشريف^(٢).

والده هو العلم المقدّس السيد محمد باقر، وجدّه هو الحجّة الكبير السيد علي السيستاني (ت/ ١٣٤٠ هـ) أحد أعلام درسي الفقه والأصول في النجف الأشرف فيما بعد، فقد هاجر إلى خراسان مشهد الإمام الرضا عليه السلام وأقام برهه من الزمن في مدرسة الملا محمد باقر السبزواري فيها، ودرس مبادئ العلوم العربية والشرعية، وهاجر بعدها إلى النجف الأشرف لمواصلة دراسته العلمية، ثم عاد إلى مشهد الإمام الرضا عليه السلام في حدود عام ١٣٠٨ هـ واستقر فيها، وقد حاز مكانة سامية مع ما كان له من حظ وافر في العلم من تقى وصلاح، استقرّت الأسرة الحسينية هذه في خراسان - مشهد الإمام الرضا عليه السلام - وحينما ولد سماحة السيد السيستاني فيها سمّاه أبوه باسم جدّه الآنف الذكر تبركاً وتيمناً، وقد تحقق تبرّكه وصدق تيمّنه بفضل الله وحده^(٣).

(١) محمد حسين الصغير، أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف: ٣٤١.

(٢) ظ: حسين محمد علي الفاضلي، الإمام السيستاني أمة في رجل: ٧٢.

(٣) ظ: محمد حسين الصغير، أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف: ٣٤١-٣٤٢.

وقد منَّ الله سبحانه وتعالى على الطائفة الشيعية في العالم، إذ قيَّض لها مرجعاً عظيم التدبر، حاد النظر، جدي المعاملة، بصير الرؤية، نافذ البصيرة، يتطلع إلى الأفق البعيد في منظور معاصر ويفيد من الماضي خبرة الناقد الواعي، ومن خلال هذين الملاحظين تجلَّت له الحقائق مرتبطة بالماخ الواقعي الذي يزن الأمور، فكان دقيق الميزان فيما يقرّر، مصيباً فيما يرى، تسدده العناية الإلهية في معاشة عصره بمفارقاته ومضاعفاته المتلاحقة، دقيق الميزان في العدل، شديد الورع في المال، واضح الزهد في المعاش واللباس والأثاث والدار، لا يعدو طعامه الجشب، ولا يألف من الأبراد إلا البسيط، في داره عادي من الفراش وزهيد من الأواني، لا دار له ولا عقار وإنما هي الدار التي عاش فيها طالباً ومدرساً في الحوزة العلمية، لا تتجاوز مساحتها سبعين متراً مربعاً، وهي مستأجرة لا يملكها، يدفع إيجارها الشهرية حتى اليوم بمبلغ متواضع، كما أنه (دام ظلّه) يمثل الذروة في تواضعه وترسّله وواقعيته وهو في مميزاته وخصائصه هذه يمثل نفحات أهل البيت عليهم السلام، واختصاراً للقول في هذا الرجل دون إضافة أو زيادة، أنه: رجل الساعة في أدق معاني هذه الكلمة وأوسعها، فهو الرجل المناسب في الموقع المناسب و ﴿الله أعلمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(١) والله في خلقه شؤون.

أضف إلى ذلك ميزات أخرى هي العيش الكفاف، وحياة الزهد، فقد كان السيستاني فقيراً مقتصداً وأصبح مرجعاً وهو فقير مقتصد يحيا حياة الفقراء والبؤساء. هذا هو السيّد الذي قيّضه الله عدّة للإسلام وسلامة للبلاد وشاخصاً في الملمات، فالله رؤوف بعباده، لطيف بهم ومتفضل عليهم ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(٣).^(٤)

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) المائدة: ٥٤.

(٣) يونس: ٦٠.

(٤) ظ: محمد حسين الصغير، أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف: ٣٤٩-٣٥٢.

المطلب الثاني :

رحلته العلمية

(وقد نشأ سماحته في أسرة دينية ملتزمة، وقد درس العلوم الابتدائية والمقدمات والسطوح وأعقبها بدراسة العلوم العقلية والمعارف الإلهية لدى جملة من أعلامها ومدرسيها حتى أتقنها)^(١).

بدأ سماحة السيّد السيستاني (مد ظله) وهو في الخامسة من العمر بتعليم القرآن الكريم تلاوة وحفظاً، ودخل مدرسة (دار التعليم الديني) في مشهد فتعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والتأريخ والجغرافيا وتخرّج في هذه المدرسة، وقد تعلم حسن الخط عند أساتذة الفن أمثال (ميرزا علي آقا ظالم) وخطّه اليوم جميل ودقيق وهو سريع الكتابة وبمتهى الجودة.

بدأ السيّد في الحادية عشرة من عمره عام ١٣٦٠ هـ وبأمر من والده بقراءة مقدمات العلوم الحوزوية فآتم قراءة جملة من الكتب الأدبية كـ (شرح الألفية) للسيوطي، و(المغني) لابن هشام، و (المختصر) و (المطول) للفتازاني، و (مقامات الحريري) و(شرح النظام) عند المرحوم الأديب النيشابوري وغيره من أساتذة الفن وقرأ (شرح اللمعة) و (القوانين) عند المرحوم السيّد أحمد اليزدي، ودرس (المكاسب) و (الرسائل) و (الكفاية) عند العالم الجليل الشيخ هاشم القزويني ودرس الفلسفة والحكمة كشرح منظومة الملا هادي السبزواري و (شرح الإشراف) و (الأسفار) عند المرحوم الآسي، ودرس (شوارق الإلهام) عند المرحوم الشيخ مجتبى القزويني وحضر في المعارف الإلهية

(١) حسين محمد علي الفاضلي، الإمام السيستاني أمة في رجل: ٧٣.

دروس العلامة المرحوم الميرزا مهدي الآصفي، كما حضر بحوث الخارج عند كل من الميرزا مهدي الأشتياني والمرحوم الميرزا هاشم القزويني (قدس سرهما).

ثابر السيّد على التزوّد من علوم أهل البيت عليهم السلام ولم يكتفِ بما حصل عليه في مشهد الإمام الرضا عليه السلام بل هاجر أواخر ١٣٦٨ هـ إلى قم المقدسة فحضر عند الإمام السيّد حسين الطباطبائي البروجردي بحثه العالي الخارج في الفقه والأصول كما حضر عند آية الله محمد الحجّة الكوهكمري في الفقه فقط.^(١)

ثمّ هاجر السيّد من مدينة قم المقدسة إلى النجف الأشرف عاصمة العلم والعلماء في صفر سنة ١٣٧١ هـ، فوصل إلى كربلاء في ذكرى أربعينية الحسين عليه السلام ثمّ نزل النجف فسكن مدرسة البخارائي العلمية وهو شاب في الثانية والعشرين من العمر ولم يبارح النجف طيلة اثنين وخمسين عاماً، إلا فترة قصيرة قضاها في موطنه مشهد الإمام الرضا عليه السلام لا تتجاوز الستة أشهر عام ١٣٨٠ هـ وإلا في ذي الحجّة من الأعوام ١٣٨٦ هـ، ١٤٠٥ هـ، ١٤٠٦ هـ لزيارة بيت الله الحرام وأداء الحجّ وزيارة النبي صلى الله عليه وآله وأئمة البقيع عليهم السلام.

استقر السيّد في النجف الأشرف وبدأ مسيرته العلمية فحضر بحوث ثلاثة أعلام وهم: الإمام السيّد محسن الحكيم، والإمام السيد أبو القاسم الخوئي، والآية الكبرى الشيخ حسين الحلي، كما حضر عند الإمام الشهرودي خلال ذلك.

وقد لازم السيّد الخوئي والشيخ الحلي في درسيهما العالين في الفقه والأصول لمدة عشر سنوات وكانت مليئة بالاشتغال والتحصيل، حتى أجزى منها بشهادتين، حيث منحه كل منها إجازة الاجتهاد وهي أعلى مرتبة علمية ينالها الطالب في حوزة النجف الأشرف وله حق مواصلة دراسته العالية حتى بلوغ درجة المرجعية التي لا ينالها إلا

(١) ظ: المصدر السابق: ٧٣ ٧٤، ظ: محمد حسين الصغير، أساطين المرجعية العليا في النجف

الأفذاذ من مجموع مئات المجتهدين، كما كتب له شيخ محدثي عصره الشيخ أغا بزرك الطهراني صاحب (الذريعة) شهادة علمية تتحدث عن مهارته القصوى في علم الحديث وعلم الرجال ومنحه إجازة في الجرح والتعديل^(١).

(١) ظ: حسين محمد علي الفاضلي، الإمام السيستاني أمة في رجل: ٧٤ ٧٥، ظ: محمد حسين الصغير، أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف: ٣٤٣-٣٤٥.

المطلب الثالث:

بحثه الخارج ومرجعيته وأثاره

عندما رجع السيّد إلى النجف الأشرف أوائل ١٣٨١ هـ ابتداءً بإلقاء محاضراته في الدرس الخارج في الفقه في ضوء مكاسب الشيخ الأنصاري، وأعقبه بشرح العروة الوثقى فتمّ له منها شرح كتاب الطهارة وأكثر كتاب الصلاة وبعض كتاب الخمس، وفي عام ١٤١٨ هـ بدأ بشرح كتاب الاعتكاف بعد أن انتهى من شرح كتاب الصوم ولا زال في سبيل إتمام العروة الوثقى ولعله أمّته^(١).

(وكانت محاضراته الفقهية قد تناولت -خلال هذه الأعوام- كتاب القضاء وأبحاث الربا وقاعدة الإلزام وقاعدة التقية وغيرها من القواعد الفقهية، كما كانت له محاضرات رجالية متجدّدة، شملت حجّة مراسيل ابن أبي عمير، وشرح مشيخة الاستبصار والتهديب وسواهما)^(٢).

كما حاضر السيّد عالياً في علم الأصول في شهر شعبان عام ١٣٨٤ هـ وقد أكمل دورته الثالثة في شعبان ١٤١١ هـ ويوجد تسجيل صوتي لجميع محاضراته الفقهية والأصولية منذ عام ١٣٩٧ هـ وإلى اليوم^(٣).

بدأ بحثه الخارج منذ أربعين عاماً تقريباً وكان في اللغة الفارسية وأكمل منه ثلاث دورات متوالية قبل مرجعيته، ولدى تسنّمه رتبة المرجعية واتساع طلابه قام بالتدريس

(١) ظ: حسين محمد علي الفاضلي، الإمام السيستاني أمّة في رجل: ٧٥.

(٢) محمد حسين الصغير، أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف: ٣٤٥.

(٣) ظ: حسين محمد علي الفاضلي، الإمام السيستاني أمّة في رجل: ٧٥، ظ: محمد حسين الصغير،

أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف: ٣٤٦.

باللغة العربية الفصحى، وهو يجيدها إجادة بارزة، لا يتلکأ ولا يتردد ولا يتوقف، وهو في هذا مثار إعجاب السامعين والمتلقين والوفود^(١).

أمّا مرجعيته (دام ظلّه) فقد كانت حدثاً عالمياً فاصلاً، فالسيستاني لم يطرح نفسه للمرجعية كما أنّه بعيد عن الأنظار، ولكنها الإِشَاءَةُ الرَّبَّانِيَّةُ التي رَشَّحت رجلاً لم يعمل للمرجعية ولم يعمل له أحد فيها، جاءته عفوية تلقائية واستقرت عنده في رحاب أعرّ ومقام أشمّ، حتى أنه قد لا يعجبه هذا التوجه إليه وطالما أبان أنّه في غنى عن هذا المنصب، وكان الأفضل أن يضل في الحوزة فرداً اعتيادياً له ما لها وعليه ما عليها^(٢).

فبعد وفاة السيّد أبي القاسم الخوئي بالكوفة الغراء بتاريخ ٨ صفر ١٤١٣ هـ الموافق ٨ آب ١٩٩٢ م^(٣)، أصبح السيّد هو المرجع الأعلى وجاءت مرجعيته سليمة من المؤثرات الداخلية والخارجية وانتهت إليه رئاسة الإمامية، ومما هو جدير بالذكر أنّ حياة السيّد السيستاني (دام ظلّه) في مرجعيته لم تتغير عن ذي قبل، فهي هي، بساطة في المظاهر، وتعفف في السمات، ووحدة في الأيدلوجية.

فالبيت متواضع نفسه والزهد في الاعتبار ذاته والتوجه نحو الناس في ازدياد هائل، حيث تقصده في كل يوم الآلاف للتبرك والإفادة والإفتاء، يرحب بهذا ويدعو لذلك ويحيب عن أسئلة الآخرين، ويقضي حوائج ذوي الضرّ ويعالج مرضاهم ويساعد ضعيفهم ويشفق على عائلهم.

والجدید والرّائع في مرجعيته سياسته الماليّة الرشيّدة التي جعلت الموسرين جادّين في استخراج حقوقهم الشرعيّة وجعلت الفقراء في غنى وكفاف عن الاحتياج وذلك بأن عمّد السيّد فأجاز العراقيين كافّة أن يعطوا حقوقهم للفقراء يدّاً بيد، وطالما أوصاهم

(١) محمد حسين الصغير، أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف: ٣٤٦.

(٢) ظ: م. ن: ٣٥٤.

(٣) ظ: م. ن: ٢٦٥.

أن يشعر الفقير بأن هذا المال هدية من الله تعالى ورسوله دون من أحد ولا أذى من فرد، حقوق الله لعباد الله.

وحتى الذين في الخارج فلهم تسليم حقوقهم إلى العراقيين المحتاجين والمستحقين داخلاً وخارجاً، بل أجاز حتى اللبنانيين في إعطاء ذوي الفاقة منهم يداً بيد.

وهذا التوجه خلق موجة من الإعجاب انتهت معها الشكوك والتساؤلات وغاب العنت والتهجم، فالمرجع لا يحتجز المال بل خوّل ذوي الحقوق بصرفه في مواضعه وبذلك تغيرت النظرة الضيقة وسقط التهاف وخرست الألسن المضللة.

كما عني بالمرضى، فلهم علاجهم ودواؤهم وأجرة أطبائهم وحساب مستشفياتهم كلُّ بنسبة ترفع الحرج ولا تبذر المال وقد يتحمل السيد كل المصاريف، كما عني بترميم البيوت وإصلاح المنازل وتوفير الضروريات.

ومع أن الأصل في مصرف بيت المال عند السيد السيستاني هو سدّ حاجة الفقير والبائس والجائع، بيد أن المشاريع التي يفيد منها الفقير لم تترك هماً بل هناك عناية خاصة بها في كل الأصعدة لا سيّما ترميم المساجد وأماكن العبادة ومرآة العلماء واحتياجات المستشفيات وإصلاح الطرق وإقامة المرافق الصحية وإرفاد ذلك في ميزانية طائلة يشرف عليها الأمناء عادةً.

أما الحوزة العلمية في النجف الأشرف فيتناول طالب العلم مرتبه الشهري بانتظام وفق جدولة تعنى بالمتدئ والمشتغل والفاضل وطالب السطوح وطالب البحث الخارج ضمن امتحانات موسمية ترشح الدرجات وتميّز بين طبقات المشتغلين، وما يجري في النجف الأشرف يجري في بقية الحوزات العلمية في بقاع الأرض بتحويل لوكلائه الأمناء.

وبمناسبة ذكر الوكلاء هنا فهو يؤكد حقيقة أن المراجع قد ينصبون عنهم الوكلاء

واختيار الوكيل يكون ضمن موازين شرعية ووفق متطلبات النزاهة والأمانة، فإن أدى الوكيل ما عليه كان قد أدى الأمانة وإن قصر عوقب وصحح تقصيره وإن خان عزل ووبّخ، ولا ضير على المرجع أن ينحرف وكيهه عن الخط السوي، فهو إنَّها يتعامل على الظاهر ولا سبيل إلى تفتيش القلوب، وإذا خان الأمانة وكلاء المراجع فقد خانها من ذي قبل وكلاء الأئمة واحتجوا المال وضيّعوا الحقوق ولا ضير على الأئمة في ذلك لأنَّ الخائن يعزل ﴿وَلَا تَرُورُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^(١) و ﴿كُلِّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾^(٢).

كما أنَّ المرجع السيستاني يوصي وكلاءه دائماً وأبداً بالتقوى ومراجعة النفس ويؤكد على مراعاة الزهد وحياة البساطة، ولكنّه لا يعارض ما يتطلبه المنحى الأخلاقي والاجتماعي من البذل في المواقع التي يرى فيها الوكلاء عنواناً ثانوياً يرفع شأن الدين ويعليّ كلمة الإسلام، ولا سيّما إنَّ سهم المؤلّفة قلوبهم ما زال قائماً وما برح القرآن به ناطقاً.

لذا فإنَّ الأصوات النشاز التي ترتفع هنا وهناك لثلب المراجع العظام عن طريق وكلائهم وثقاتهم ما هي إلا تخطيط قصد إليه للتشكيك في النظام المرجعي القائم منذ عهد النّوَاب الأربعة إلى هذا اليوم الذي تتابعت فيه المحن وتلاحقت به الفتن.

ومصادر هذه الإشاعات التي تحاول النيل من المرجعية ووكلائها وذلك بالقدر في ثقة الوكيل إنَّما نراها تضلع في ركب التضليل العالمي ضدّ مرجعية أهل البيت عليهم السلام، وليس في ذلك أي استثمار رسالي أو إنساني للمجموعة المؤمنة وإنَّما هو الدمار والبوار الذي تسخر له غوغائية الأعمار والنكرات^(٣).

أمّا ما يتعلق بآثاره (دام ظلّه) فيظهر من خلالها أنّ سماحته مؤلف بارع ومصنّف

(١) فاطر: ١٨.

(٢) الطور: ٢١.

(٣) ظ: محمد حسين الصغير، أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف: ٣٥٤-٣٥٩.

من الطراز الممتاز، نذكر في هذه العجالة جملة منها:

(شرح العروة الوثقى، البحوث الأصولية، كتاب القضاء، كتاب البيع والخيارات، رسالة في اللباس المشكوك فيه، رسالة في قاعدة اليد، رسالة في صلاة المسافر، رسالة في قاعدة التجاوز والفراغ، رسالة في القبلة، رسالة في التقية، رسالة في قاعدة الإلزام، رسالة في الاجتهاد والتقليد، رسالة في قاعدة لا ضرر ولا ضرار، رسالة في الربا، رسالة في حجّية مراسيل ابن أبي عمير، رسالة في قاعدة القرعة، رسالة في مسالك القدماء في حجّية الأخبار، رسالة في صيانة الكتاب العزيز من التحريف، رسالة في تأريخ تدوين الحديث في الإسلام، رسالة في تحقيق نسبة كتاب العلل إلى الفضل بن شاذان، رسالة في حكم ما إذا اختلف المجتهدان المتساويان في الفتوى، رسالة في اختلاف الآفاق في رؤية الهلال، شرح مشيخة التهذيبين، نقد رسالة تصحيح الأسانيد للأردبيلي، الفوائد الغروية، الفوائد الرجالية، الفوائد الفقهية، شرح مشيخة الفقيه، تعليقة على العروة الوثقى، مناسك الحجّ، منهاج الصالحين، توضيح المسائل، المسائل المنتخبة، فقه المغتربين: كتبه الدكتور عبد الهادي محمد تقي الحكيم في ضوء فتاواه، فقه الحضارة: كتبه الدكتور محمد حسين علي الصغير في ضوء فتاواه، المسائل المستحدثة في الحجّ: جمع وفق فتاوى سماحته (دام ظله)، الميسر في الحجّ والعمرة: جمع وفق فتاوى سماحته (دام ظله)، الفتاوى الميسرة: جمع وفق فتاوى سماحته (دام ظله)، مختصر الرسالة: جمع وفق فتاوى سماحته (دام ظله)، مختصر توضيح المسائل: جمع وفق فتاوى سماحته (دام ظله)، رسالة أحكام (للشباب): جمع وفق فتاوى سماحته (دام ظله)، الرافد في علم الأصول: تقاريرات بحث سماحته (دام ظله)^(١).

(١) ظ: حسين محمد علي الفاضلي، الإمام السيستاني أمة في رجل: ٨٦-٨٧، ظ: محمد حسين الصغير، أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف: ٣٨٦-٣٨٧.

المبحث الثالث:

التنظير العلمي لمفهوم الإصلاح

توطئة: الإصلاح لغة واصطلاحاً:

الأصل في كلمة الإصلاح أنَّها مشتقة من الفعل صَلَح، وهي كما ورد في معجم العين (الصلاح: نقيض الطلاح، ورجل صالح في نفسه ومصلح في أعماله وأموره، والصالح: تصالح القوم بينهم، وأصلحت إلى الدابة: أحسنت إليها)^(١).

و (صلح: الصلاح ضد الفساد..... والإصلاح نقيض الإستفساد وأصلح الشيء بعد فساده أقامه، وأصلح الدابة أحسن إليها فصلحت)^(٢).

وقد ورد في تاج العروس معنى الإصلاح لغة (الصَّلَاح: ضِدُّ الْفَسَادِ، وَقَدْ يُوصَفُ بِهِ أَحَادُ الْأُمَّةِ، وَلَا يُوصَفُ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَالرَّسُلُ ﷺ..... وَأَصْلَحَهُ: ضِدُّ أَفْسَدَهُ، وَقَدْ أَصْلَحَ الشَّيْءُ بَعْدَ فُسَادِهِ: أَقَامَهُ)^(٣).

وفي الإصطلاح:

يعرّفه قاموس أكسفورد بأنه (تغيير أو تبديل نحو الأفضل في حالة الأشياء ذات النقائص، وخاصّة في المؤسسات والممارسات السياسية الفاسدة أو الجائرة، للإزالة بعض التعسّف أو الخطأ)^(٤).

(١) الفراهيدي، العين: ١١٧/٣.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: ٥١٧/٢.

(٣) الزبيدي، تاج العروس: ١٢٥/٤.

(٤) محمد محمود السيد، مفهوم الإصلاح السياسي الحوار المتمدّن: www.m..ahewar.org>s.asp

وهو أيضاً: (إرادة الخير وتقويم العوج)^(١).

المطلب الأول:

الإصلاح في القرآن الكريم والسنة المطهرة

أولاً: الإصلاح في القرآن الكريم:

لقد استوعب القرآن الكريم - باعتباره دستور الإسلام الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - كل ما في الوجود، فقد قال عزّ من قائل: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١).

لذا كان مؤكداً أنه لم يغفل عن ذكر أمر له كثير من الأهمية ألا وهو (الإصلاح)، فقد تناول القرآن الكريم هذا الأمر وأولاه عناية واهتماماً، فتارة يذكر الإصلاح في أمر اليتامى، وأخرى يذكره بين الزوجين، وثالثة بين الناس عامة، ورابعة يذكر الإصلاح في الأرض وهكذا...

وستتناول في هذه الصفحات نماذج من الآيات التي تحدّثت عن (الإصلاح):

١ قوله تعالى: ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢).

ورد في تفسير التبيان حول هذه الآية المباركة ما قاله الطوسي: (ومعنى الآية الإذن لهم فيما كانوا متحرجين منه من مخالطة الأيتام في الأموال من المأكل، والمشرب والمسكن، ونحو ذلك، فأذن الله لهم في ذلك إذا تحروا الإصلاح بالتوفير على الأيتام - في

(١) النحل: ٨٩.

(٢) البقرة: ٢٢٠.

قول الحسن، وغيره وهو المروي في أخبارنا^(١).

وفي تفسير الأمل تناول الشيرازي تفسير هذه الآية من خلال الإجابة على السؤال الموجود في مطلع الآية في عبارة (ويسألونك) حيث يقول: ثم تذكر الآية هذا السؤال وجوابه وتقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ وعلى هذا الأساس فالقرآن يوصي المسلمين بعدم إهمال اليتامى، فإن الإعراض عن تحمل مسؤوليتهم وتركهم وشأنهم أمر مذموم، فالأفضل أن يتقبلوا المسؤولية ويصلحوا أمر اليتامى، وإن اختلطت معيشتهم بمعيشتكم فعاملوهم معاملة الأخ لأخيه، فلا حرج في اختلاط الأموال إذا كان الدافع هو الإصلاح، ثم تضيف الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُنْهَدِ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ أجل، إن الله مطلع على نياتكم ويعلم من يقصد السوء بالاستفادة من أموال اليتامى ليحيف عليهم ومن هو مخلص لهم^(٢).

٢. قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٣).

جاء في تفسير التبيان تفصيل حول المراد بالقرء ومن ثم حرمة كتمان الحمل على المطلقة، ثم قال الطوسي: ﴿وَبَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ يعني: أزواجهن أحق برجعتهن، وذلك يختص بالرجعيات وإن كان أول الآية عاماً في جميع المطلقات الرجعية والبائنة، وسمي الزوج بعلاً؛ لأنه عال على المرأة بملكه لزوجيتها^(٤).

(١) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن: ٢١٤/٢.

(٢) ظ: ناصر مكارم الشيرازي، الأمل في تفسير كتاب الله المنزل: ١١٦/٢.

(٣) البقرة: ٢٢٨.

(٤) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن: ٢٤٠/٢.

أما في تفسير الأمثل فيقول الشيرازي في تفسير هذه الآية: الحكم المستفاد من الآية هو أن للزوج حق الرجوع إلى زوجته في عدة الطلاق الرجعي، فتقول الآية: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾، وهذا يستطيع الزوج استئناف علاقته الزوجية بدون تشریفات خاصة إذا كانت المرأة في عدة الطلاق الرجعي، فإذا قصد الرجوع يتحصل بمجرد كلمة أو عمل يصدر منه بهذا القصد، وجملة: إن أرادوا إصلاحاً في الحقيقة هي لبيان أن هدف الرجوع يجب أن يكون بنية الإصلاح لا كما كان عليه الحال في العصر الجاهلي من أن الزوج يستخدم هذا الحق لغرض الإضرار بالزوجة حيث يتركها في حالة معلقة بين الزواج والطلاق، فهذا الحق يكون للزوج في حالة إذا كان نادماً واقعاً وأراد أن يستأنف علاقته الزوجية بجديّة، ولم يكن هدفه الإضرار بالزوجة^(١).

٣. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعُثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾^(٢).

جاء في تفسير هذه الآية في التبيان وقوله: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾، معناه يوفق الله بينهما، والضمير في بينهما عائد على الحكّمين، والمعنى: إن أرادوا إصلاحاً في أمر الزوجين يوفق الله (بينهما)، وبه قال ابن عباس، وسعيد بن جبیر، والسدي. وأصل التوفيق الموافقة، وهي المساواة في أمر من الأمور، والتوفيق هو اللطف الذي يتفق عنده فعل الطاعة، والتوفيق بين نفسين هو الإصلاح بينهما^(٣).

وأما في تفسير الأمثل فقد قال الشيرازي: (في هذه الآية إشارة إلى مسألة ظهور الخلاف والنزاع بين الزوجين، فهي تقول: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعُثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ ليتفاوضا ويقربا من وجهات النظر لدى الزوجين، ثم يقول

(١) ظ: ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ١٤٧/٢.

(٢) النساء: ٣٥.

(٣) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن: ١٩٢/٣.

تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أي ينبغي أن يدخل الحكمان المندوبان عن الزوجين في التفاوض بنية صالحة ورغبة صادقة في الإصلاح، فإنهما إن كانا كذلك أعانها الله ووفق بين الزوجين بسببها. ومن أجل تحذير (الحكمين) وحثهما على استخدام حسن النية، يقول سبحانه في ختام هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾^(١).

٤. قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٢).

ذكر الطوسي في تفسير هذه الآية قوله: والتقدير في الآية، لا خير في كثير مما يديرونه بينهم من الكلام، إلا كلام من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس..... إلى أن يقول: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾، إشارة إلى ما تقدم من الأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس ابتغاء مرضاة الله يعني طلب مرضاة الله^(٣).

أما الشيرازي فقد قال في تفسير الآية المباركة: (وأوضحت الآية الموارد التي تجوز فيها النجوى، مثل أن يوصي الإنسان بصدقة أو بمعونة للآخرين أو بالقيام بعمل صالح أو أن يصلح بين الناس، فتقول الآية في هذا المجال: إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس)^(٤)، وبعد أن يتناول المفسر المجالات التي تجوز فيها النجوى بالشرح والتفصيل يقول: (والحالة الأخرى التي يجوز فيها النجوى هي في مجال الإصلاح بين الناس، الذي يقتضي أن يكون سرّياً أحياناً لضمان تحقيقه، إذ من الممكن لو أن الأمر تم بصورة علنية لحال دون حدوث الإصلاح، لذلك يجب أن يتم الإصلاح بالتحدّث إلى كل طرف من أطراف النزاع بصورة خفية، أي بطريق النجوى..... إلى أن يقول: ونقل عن النبي ﷺ قوله لأبي أيوب: «ألا أدلك على صدقة يحبها الله ورسوله، تصلح بين

(١) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٣/ ٢٢٤.

(٢) النساء: ١١٤.

(٣) ظ: الطوسي، التبيان في تفسير القرآن: ٣/ ٣٢٦-٣٢٧.

(٤) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٣/ ٤٥٢.

الناس إذا تفسدوا وتقرب بينهم إذا تباعدوا»^(١).

٥. قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢).

فسر الشيخ الطوسي هذه الآية بقوله: (نهى الله تعالى في هذه الآية عن الفساد في الأرض وهو الإضرار بما تمتع الحكمة منه، يقال: أفسد الحرّ التفاحة إذا أخرجها إلى حال الضرر بالتغيير، والإصلاح النفع بما تدعو إليه الحكمة ولذلك لم تكن الآلام في النار إصلاحاً لأهلها؛ لأنه لا نفع لهم فيها، وقال الحسن: إفساد الأرض بالقتل للمؤمنين والاعتداء عليهم، وقيل: إفساد الأرض العمل فيها بمعاصي الله، وإصلاحها العمل فيها بطاعة الله)^(٣).

وفي تفسير الأمثل، بعد أن يذكر المفسر أن هناك شروطاً لإجابة الدعاء وبعد أن يفصلها مطوّلاً يقول: (والمراد من الفساد بعد الإصلاح يمكن أن يكون الإصلاح من الكفر أو الظلم أو كليهما، جاء في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام: «إن الأرض كانت فاسدة فأصلحها الله تعالى بنبيه صلى الله عليه وآله»^{(٤) (٥)}).

٦. قوله تعالى ﴿وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٦).

ورد في تفسير التبيان بشأن هذه الآية قول المفسر: «وقوله ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ

(١) المصدر السابق: ٣/ ٤٥٤.

(٢) الأعراف: ٥٦.

(٣) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن: ٤/ ٣٢٥.

(٤) الكليني، الكافي: ٨/ ٥٨.

(٥) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٥/ ٨٠.

(٦) الأعراف: ٨٥.

بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴿١﴾ يعني بعد أن أصلحها الله بالأمر والنهي وبعثة الأنبياء وتعريف الخلق مصالحهم. والإفساد إخراج الشيء إلى حد لا ينتفع به بدلاً عن حال ينتفع بها، وضده الإصلاح، والمعنى لا تخرجوا إلى العمل في الأرض بالقبائح بعد أن أصلحها الله بالمحاسن»^(١).

وجاء في تفسير الأمثل حول الآية المباركة (ثم يشير إلى عمل آخر من الأعمال الأثيمة، وهو الإفساد في الأرض بعد أن أصلحت أوضاعها بجهود الأنبياء، وفي ضوء الإيمان فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾، ومن المسلم أنه لا يستفيد أحد من إيجاد الفساد ومن الإفساد، سواء كان فساداً أخلاقياً، أو من قبيل فقدان الإيمان، أو عدم وجود الأمن، لهذا أضاف في آخر الآية قائلاً: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

٧. قوله تعالى ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَن أُخَالِفَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(٣).

جاء في تفسير التبيان بشأن هذه الآية (وقوله إن أريد إلا الإصلاح، معناه لست أريد بما أمركم به وأنهاكم عنه إلا إصلاح حالكم ما قدرت عليه)^(٤).

ويقول الشيرازي في تفسيره الأمثل: (ثم يضيف هذا النبي العظيم قائلاً: وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه فلا تتصوروا أنني أقول لكم لا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تنقصوا المكيال، وأنا أبخس الناس أو أنقص المكيال، أو أقول لكم لا تعبدوا الأوثان

(١) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن: ٤٦٢ / ٤.

(٢) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٥ / ١١٢.

(٣) هود: ٨٨.

(٤) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن: ٥١ / ٦.

وأنا أفعل ذلك كله، كلا فإنني لا أفعل شيئاً من ذلك أبداً، ويستفاد من هذه الجملة أنهم كانوا يتهمون شعبياً بأنه كان يريد الربح لنفسه، ولهذا فهو ينفي هذا الموضوع صراحة ويقول تعقياً على ما سبق: إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وهذا هو هدف الأنبياء جميعاً، حيث كانوا يسعون إلى إصلاح العقيدة، وإصلاح الأخلاق، وإصلاح العمل، وإصلاح العلاقات والروابط الاجتماعية وأنظمتها، وما توفقي إلا بالله للوصول إلى هذا الهدف. وعلى هذا فإنني، ولأجل أداء رسالتي والوصول إلى هذا الهدف الكبير عليه توكلت وإليه أنيب^(١).

ثانياً: الإصلاح في السنة المطهرة:

كما أن القرآن الكريم لم يغفل هذا الجانب (الإصلاح) وذكره في آياته المباركات، فكذا السنة المطهرة التي نأخذها عن المعصوم النبي والأئمة عليهم السلام لم تغفل عنه البتة، فقد وردت أحاديث كثيرة في هذا الجانب نعرض إلى بعض منها:

١. (أحمد بن أبي عبد الله عن أبيه عن يونس عن عبد الله بن سنان أو بن مسكان عن أبي الجارود قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «إذا حدثتكم بشيء فسلوني عن كتاب الله عز وجل، ثم قال في حديثه: إن الله تعالى نهى عن القيل والقال وفساد المال وكثرة السؤال، فقالوا: يا بن رسول الله أين هذا من كتاب الله عز وجل؟ قال: إن الله عز وجل يقول في كتابه ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٢) وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾^(٣) وقال: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾^(٤)^(٥).

(١) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٣٩ / ٧.

(٢) النساء: ١١٤.

(٣) النساء: ٥.

(٤) المائدة: ١٠١.

(٥) الطوسي، تهذيب الأحكام: ٢٣١ / ٧ - ٢٣٢.

حيث يذكر الإمام الباقر عليه السلام في هذا الحديث إن الله نهى عن فساد المال، وإذا اعتبرنا ذلك منطوقاً كما في أصول الفقه فإن المفهوم يكون: إن الله أمر بإصلاح المال.

٢. كما عقد الشيخ الكليني في كتابه الكافي باباً بعنوان (الإصلاح بين الناس) ذكر فيه عدة أحاديث عن آل البيت عليهم السلام بهذا الخصوص نذكر منها: (محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن محمد بن سنان عن حماد بن أبي طلحة عن حبيب الأحول قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «صدقة يجبها الله إصلاح بين الناس إذا تفسدوا وتقارب بينهم إذا تباعدوا»^(١)، وفي حديث آخر (علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبد الله بن المغيرة، عن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «المصلح ليس بكاذب»^(٢)).

ففي الحديث الأوّل دعوة إلى الإصلاح بين الناس وقد اعتبرها عليه السلام صدقة يجبها الله تعالى.

أمّا الحديث الثاني فمعناه: إذا تكلم المصلح بما لا يطابق الواقع فيما يتوقف عليه إصلاح ذات البين فلا يعدّ كلامه كذباً.

٣. كذلك عقد الشيخ في الكافي باباً آخر أسماه (إصلاح المال وتدبير المعيشة) وأورد فيه عدة أحاديث عن الأئمة الأطهار عليهم السلام بما يختص بإصلاح المال منها: (عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن ابن فضال، عن ثعلبة، وغيره، عن رجل، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إصلاح المال من الإيمان»^(٣)).

ففي هذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام يجعل إصلاح المال وتدبيره من الإيمان، إشارة منه إلى أهمية تدبير المال وضرورته.

٤. لا يغيب عن أذهاننا في هذا المبحث الإشارة إلى رائد الإصلاح والعدالة الامام

(١) الكليني، الكافي: ٢/٢٠٩.

(٢) م. ن: ٢/٢٠٩-٢١٠.

(٣) الكليني، الكافي: ٥/٨٧.

(الحسين الشهيد)، الذي ضحّى بدمه الطاهر من أجل إصلاح الأمة، حيث ذكر ﷺ في جزء من رسالته إلى أخيه محمد بن الحنفية عندما أراد مغادرة المدينة المنورة قوله: «وأني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ﷺ، أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب ﷺ....»^(١).

(فهو ﷺ) لم يعلن عزمه على محاربة شخص.. كيزيد مثلاً.. كما أنه لم يجعل إسقاط الحكم والنظام القائم هو الهدف والغاية من حركته.. بل أعلن: إنه يريد الإصلاح في أمة جده.. والإصلاح أمر مطلوب لدى العقلاء، ولا بد أن يسعى إليه حتى أركان النظام أنفسهم، إن كانوا منسجمين مع أحكام العقل والفطرة والدين، ويتحملون المسؤولية الشرعية والإنسانية.. أضف إلى ذلك: أنه ﷺ لم يقل: أريد إصلاح الأمة، بل هو يريد الإصلاح في الأمة.. وذلك من شأنه أن يبعث الطمأنينة في نفوس الناس.. حيث إنه يبعد عن مخيلتهم شبح التحدي لهم كأشخاص وجماعات، إذ يفسح المجال لتصور أن المستهدف هو في مواقع أخرى.. لا بد لهم من المشاركة، والتعاون في إصلاحهم دون أن يشعروا هم أنفسهم أنهم مستهدفون في ذلك)^(٢).

كما أنه ﷺ بيّن في رسالته هذه أنه لا بدّ من الخروج لطلب الإصلاح، ولا إصلاح إلا بقول وعمل، والقول هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بنطاقها الواسع لكل ما عرفه وأنكره العقل والوحي، والعمل هو سيرة أشرف الأنبياء وسيّد الأوصياء (صلوات الله عليه)^(٣).

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٤٤ / ٣٣٠.

(٢) جعفر مرتضى العاملي، مختصر مفيد: ٦٩ / ١.

(٣) ظ: وحيد الخراساني، مقدمة في أصول الدين: ٣٥٩.

المطلب الثاني :

الإصلاح من منظور السيّد السيستاني

بدأ الدور الكبير للسيّد السيستاني بعد سقوط النظام البائد الذي كان جائئاً على صدور العراقيين أكثر من ثلاثة عقود، حيث واجهت العراقيين مشاكل جمّة دفعتهم إلى الإلحاح في المطالبة بتدخل المرجعية المتمثلة بساحة السيّد السيستاني (دام ظلّه) من أجل حلّ هذه المشاكل التي كانت ستودي بالعراق وشعبه إلى الهاوية، وقد شكّل هذا الإلحاح واجباً متعيّناً على السيّد (دام ظلّه)، وفعلاً فقد مضى السيّد السيستاني بثبات ووقار، كالجبل الأشمّ لا تهزه العواصف، وراح يقود المعركة الإصلاحية من داره المتواضعة، كرّبان خبير، يدير دفة سفينته في بحر متلاطم ويصارع أعتى الأمواج، ينشر شراعاً هنا، ويطوي آخر هناك، يلقي ببعض الحمولة تارة ليقى سفينته ريحاً هوجاء، ويسرع تارة أخرى ليقطع طريق العصيان والهلاك على بعض البحّارة حيث يصرون على أن ترسو السفينة في جزيرة لاحت لهم، وميناء خادع مرّوا به^(١).

وقد كانت هذه المعركة الإصلاحية شاملة لكل جوانب ومرافق الدولة وحياة المواطنين، فقد كانت له خطوات مباركة في الإصلاح المالي والإداري والسياسي والقانوني وغيره، وسنعرض لكل واحد من هذه الجوانب على حدة وذلك من خلال البيانات الصادرة عن مكتب السيّد السيستاني (دام ظلّه الوارف).

(١) ظ: حسين محمد علي الفاضلي، الإمام السيستاني أمة في رجل: ٣٠١.

أولاً: الإصلاح السياسي والإداري والقانوني؛

(يشكل دخول السيّد السيستاني فضاء العملية السياسية في العراق تعبيراً عن تكليف أخلاقي إسلامي يجد منعكسه الحقيقي في الالتفاف الجماهيري الكبير حول الانتخابات لإختيار النظام الاجتماعي والسياسي لصالح العراقيين بعد أكثر من ثلاثة عقود من الاضطهاد الحكومي المنظم وتغييب الحريات^(١)).

فالسيّد السيستاني هو المرجع الأعلى للطائفة الشيعية في العراق والعالم الإسلامي لكنّه يتعامل مع المسألة الوطنية في العراق بإعتبارها مسألة العراقيين جميعاً بكافة إتجاهاتهم وتياراتهم الوطنية والإسلامية والقومية والمسيحية، وقد كانت حركة السيّد (دام ظله) بدعم العملية السياسية حركة المرجع المعني بحقوق أبناء الشعب العراقي كافة ولن يكون معنياً أبداً بحقوق طائفة أو فئة بعينها من المجتمع العراقي، وقد اكتسبت تلك الحركة تقدير واحترام كافة الفئات السياسية والاجتماعية عدا بعض الأطراف السياسية التي أطلقت زعقات لا تخرج عن حدود الجدل السياسي الذي عادة ما يرافق الحملات الانتخابية وتنافس الأطراف السياسية الداخلة فيه، وقد كان السيّد (دام ظله) يقف على مسافة واحدة من العملية برمتها أولاً وأطرافها وكتلها ومجموعاتها السياسية وقواعدها الجماهيرية المليونية ثانياً، فلم ولن يستطيع أيّاً كان من الحياة السياسية أن يتحدث عن إعطاء صكوك تزكية من النجف ومرجعيتها الدينية لهذه المجموعة أو تلك^(٢).

ثم إن السيّد السيستاني (دام ظله) كان يؤكد في أكثر من موقف وفتوى وبيان وأيضاً في لقاءاته مع الشخصيات الدينية والسياسية على ضرورة إحترام حقّ الشعب في إختيار لون النظام الذي يريده وعدم التدخل في الشؤون الداخلية العراقية، يتضح ذلك في سؤال وجّهته صحيفة (الواشنطن بوست) إلى سماحة السيّد (دام ظله) ونصّه هو (ما

(١) المصدر السابق: ١٧٧.

(٢) ظ: حسين محمد علي الفاضلي، الإمام السيستاني أمة في رجل: ١٧٧-١٧٨.

هو موقفكم ورأيكم تجاه التواجد الأمريكي؟^(١).

وجاء جواب السيّد (دام ظله) بالقول: «نشعر بقلق شديد تجاه أهدافهم، ونرى ضرورة أن يفسحوا المجال للعراقيين بأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم من دون تدخل أجنبي»^(٢).

وفي سؤال آخر وجّهته له صحيفة (لوس أنجلوس تايمز) حول الحدّ الأقصى لتواجد قوّات التحالف في العراق، وجاءت إجابة السيّد (دام ظله) بضرورة فسح المجال للعراقيين بأن يحكموا بلدهم بأنفسهم من دون مماطلة^(٣).

ومما يدل على رفضه للتواجد الأمريكي على أرض العراق هو عدم موافقته على اللقاء بأي شخص من الجانب الأمريكي طيلة فترة بقاء الإحتلال في العراق بالرغم من إلحاح الجانب الأمريكي على ذلك ومحاولته اللقاء به أكثر من مرّة وبشّى الطرق والوسائل ولكنّ سماحته كان يرفض مثل هذه اللقاءات، بل أكثر من ذلك إنّّه كان يعرب عن رفضه للتواجد والبقاء الأمريكي في العراق بأنّه كان يقول لمن يزوره من المؤمنين: «أخبروهم متى يخرجون من أرضنا»؟.

وعندما وجّهت صحيفة (نوفيل أوبزرفاتر الفرنسية) في ١ رجب ١٤٣٤ هـ سؤالاً إلى سماحته عن الوقت المناسب لمغادرة الأمريكان من العراق أجاب بقوله: «لا مبرّر لتواجدهم من الأساس، وإذا كانت هناك حاجة الى قوّات أجنبية لحفظ الأمن والاستقرار في العراق في المرحلة الانتقالية فلتكن تحت مظلة الأمم المتحدة»^(٤).

إلى جانب ذلك كلّه فإنّ للسيّد سعياً حثيثاً في انتخاب حكومة عراقية هي من تتولى

(١) حامد الخفاف، النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ٢٨.

(٢) م. ن: ٢٨.

(٣) ظ: م. ن: ٣٦.

(٤) م. ن: ٦١.

حكم البلد إضافة إلى تشريع دستور للعراق يكتب بأيدي عراقية، فقد وجه سؤال إلى سماحة المرجع من قبل مراسل وكالة أنباء (أسوشيتد برس) الأمريكية (باسم حلمي مروة) حول الحكومة المراد تشكيلها في العراق ما بعد صدام حسين وكيف يجب أن يتم تشكيلها وهل ستلعب المرجعية دوراً فيها؟، وقد جاء الجواب بأن شكل نظام الحكم في العراق يحدده الشعب العراقي وآلية ذلك أن تجرى انتخابات عامة لكي يختار كل عراقي من يمثله في مجلس تأسيسي لكتابة الدستور، ثم يطرح الدستور الذي يقره هذا المجلس على الشعب للتصويت عليه، والمرجعية لا تمارس دوراً في السلطة والحكم^(١).

حيث يؤكد السيد على إجراء الانتخابات العامة وأن تكون الحكومة منبثقة عن إرادة الشعب بجميع طوائفه وأعرافه^(٢).

أي يجب اعتماد آلية الانتخابات دون التعيين^(٣) ولا بديل عن إجراء الانتخابات لاختيار أعضاء المؤتمر الدستوري^(٤) من قبل العراقيين ولا شرعية لأي دستور يكتب بأيدي أشخاص معيّنين سواء من قبل سلطة الاحتلال أو أعضاء ما يسمّى بمجلس الحكم أو غيرها^(٥)، ففي سؤال توجهت به صحيفة (نيويورك تايمز) في ٢٨ جمادى الأول ١٤٢٤ هـ إلى سماحة السيد (دام ظله) حول نيّة مجلس الحكم لتكوين مجلس لكتابة الدستور، حيث جاء الجواب بأنّه لا صلاحية لهم في تعيين أعضاء مجلس كتابة الدستور بل لا بدّ من إجراء الانتخابات العامة^(٦).

وفي كل موطن كان يوجّه له سؤال حول تقرير مصير الشعب العراقي فإنّه يؤكد

(١) حامد الخفاف، النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ١٨.

(٢) ظ: م. ن: ٣٩.

(٣) م. ن: ٤٠.

(٤) م. ن: ٧٥.

(٥) م. ن: ٤٠.

(٦) م. ن: ٤٦.

على إجراء الانتخابات العامة الحرّة المباشرة لكي تتاح للشعب الفرصة في تقرير مصيره وتشكيل حكومة ترعى مصالحه، وبالفعل فقد جاءت جهوده المباركة بالنتيجة المرجوة ألا وهي إجراء الانتخابات الحرّة المباشرة، وعندما قرّرت المفوضية العليا للانتخابات فتح مراكز تسجيل الناخبين في جميع مراكز العراق لمدة ستة أسابيع اعتباراً من ١١/١/٢٠٠٤ م، أوجب سماحته على المواطنين المؤهلين للتصويت من الذكور والإناث التحقق من أسمائهم في سجل الناخبين بصورة صحيحة، ومن لم يدرج اسمه أو أدرج بصورة مغلوطة فعليه مراجعة اللجنة الانتخابية في منطقته وإبراز المستمسكات المطلوبة للتدارك والتصحيح حتى يتسنى للجميع المشاركة في الانتخابات^(١).

كما أنّ السيّد السيستاني لم يدعُ فقط إلى انتخابات المجلس الدستوري لكتابة الدستور العراقي بل إنّه دعا أيضاً إلى المشاركة في انتخابات مجلس النواب وذلك في جوابه عن استفتاء وجّه إلى سماحته حول الانتخابات العراقية ورد فيه (مع اقتراب موعد انتخابات مجلس النواب -الذي أنيطت به مهمّة تعديل الدستور وإقرار عشرات اللوائح القانونية وتنبتق منه الحكومة الجديدة التي ستدير البلاد للسنوات الأربع القادمة- يسأل الكثير من المؤمنين عن موقف المرجعية الدينية تجاه المشاركة في هذه الانتخابات وهل يختلف نظرها إليه ممّا كان عليه في الانتخابات الماضية؟)^(٢).

وقد جاء في جواب سماحته: «إنّ هذه الانتخابات لا تقلّ أهمية عن سابقتها وعلى المواطنين -رجالاً ونساءً- أن يشاركوا فيها مشاركة واسعة ليضمنوا حضوراً كبيراً وقوياً للذين يؤتمنون على ثوابتهم ويحرصون على مصالحهم العليا في مجلس النواب القادم، ولهذا الغرض لا بدّ أيضاً من التجنّب عن تشتيت الأصوات وتعريضها للضياع»^(٣).

(١) ظ: المصدر السابق: ١٢٧.

(٢) حامد الخفاف، النصوص الصادرة عن سماحة السيّد السيستاني في المسألة العراقية: ١٤٤.

(٣) م. ن: ١٤٤.

وبذلك يظهر لنا واضحاً كوضوح الشمس في رابعة النهار أنّ السيّد السيستاني (دام ظلّه) كان ولا يزال حريصاً كلّ الحرص على أن يقرر الشعب العراقي مصيره بنفسه دون تدخل من أي طرف من الأطراف.

كما أنّ للسيّد دوراً لا ينكره إلا من كان في قلبه مرض في إخماد الفتنة الطائفية المقيتة التي أشعل فتيلها من كان يريد بالعراق والعراقيين السوء وعدم الاستقرار، فقد بات الخطاب الطائفي البغيض هو السائد كما باتت الفتنة الطائفية المقيتة تهدّد الجميع من الدخول في أتون حرب أهلية طاحنة مع تصاعد حالة التكتل المذهبي والاصطفاف الطائفي في المنطقة ونحن بأمسّ الحاجة إلى سماع صوت العقل والحكمة^(١).

عندها لم يبخل السيّد (دام ظلّه) بأن يبث ما في قلبه الكبير من حبّ للعراق والعراقيين ويشيعه بينهم كي تسود المحبّة والودّ والسلام وذلك بإصدار الفتاوى والبيانات التي من شأنها تهدئة الوضع وهو يؤكد على حرمة دم كل مسلم سنياً كان أو شيعياً وحرمة عرضه وماله والتبرؤ من كلّ من يسفك دمًا حراماً أيّاً كان صاحبه مع دعوته إلى رصّ الصفوف ونبذ الفرقة والابتعاد عن النعرات الطائفية وتجنّب إثارة الخلافات المذهبية وتوثيق أواصر المحبّة والمودّة بين أبناء الأمة^(٢).

ففي بيان صدر من مكتب السيّد (دام ظلّه) في ١٤ محرم الحرام ١٤٢٨ هـ الموافق ٢٠٠٧/٢/٣ م، حول فتاوى باطلة نسبت إلى سماحته نشرتها جريدة الوطن السعودية العدد ٢٣٠٦ الصادر في ٣ محرم الحرام ١٤٢٨ هـ، في الصفحة ١٦ للكاتب ثامر الميمان ونصّ الفتوى هو: إنّه إذا لمس الشيعي السنّي وهو متوضئ فإنّ هذا ينقض الوضوء وعلى الشيعي إعادة وضوءه. إنتهى. متسائلاً حول صدق هذه الفتوى الموجودة - حسب إدعائه - على موقع السيستاني أو كذبها، وقد سبّب ذلك ضجّة في السعودية وأدى إلى

(١) ظ: حسين محمد علي الفاضلي، الإمام السيستاني أمة في رجل: ٢٥٩.

(٢) ظ: م. ن: ٢٥٥.

الاحتقان الطائفي مما دفع المؤمنين إلى التحرك والاستفسار مباشرة من مكتب السيد (دام ظلّه) وجاء الردّ في بيانه بالتأريخ المذكور آنفاً ينفي مثل هكذا فتوى ويدعو إلى أخذ الفتوى من مصادرها الموثوقة إضافة إلى دعوته إلى الانسجام والتوحد والتعايش السلمي بين أبناء الأمة والابتعاد عن المشاحنات والمهاترات المذهبية والطائفية أيّاً كانت عناوينها^(١).

وجاء في جزء من البيان قوله: «فينبغي لكلّ حريص على رفعة الإسلام ورقّيّ المسلمين أن يبذل ما في وسعه في سبيل التقريب بينهم والتقليل من حجم التوترات الناجمة عن بعض التجاذبات السياسية لئلا تؤدي إلى المزيد من التفرّق والتبعثر وتفسح المجال لتحقيق مآرب الأعداء الطامعين في الهيمنة على البلاد الإسلامية والاستيلاء على ثرواتها»^(٢).

وأضاف في البيان: (كلّ هذا يفصح بوضوح عن منهج المرجعية الدينية في التعاطي مع أتباع سائر المذاهب ونظرتها إليهم، ولو جرى الجميع وفق هذا المنهج مع من يخالفونهم في المذهب لما آلت الأمور إلى ما نشهده اليوم من عنف أعمى يضرب كلّ مكان وقتل فضيع لا يستثنى حتى الطفل الصغير والشيخ الكبير والمرأة الحامل وإلى الله المشتكى)^(٣).

أعقب هذا البيان -الذي يعكس فيه أخلاق أهل البيت عليهم السلام وتربيتهم لشيعتهم وتعاملهم الشفاف مع الرأي الآخر - بدعائه لأن يأخذ الله بأيدي الجميع إلى ما فيه خير هذه الأمة وصلاحتها إنّه على كل شيء قدير^(٤).

(١) ظ: حسين محمد علي الفاضلي، الإمام السيستاني أمة في رجل: ٢٥٥-٢٥٧.

(٢) م. ن: ٢٥٧.

(٣) م. ن: ٢٥٨.

(٤) حامد الحفاف، النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ٢٥٨.

كذلك وجّه ساحتَه رسالة إلى الشعب العراقي حول الفتنة الطائفية في ٢٢ جمادى الآخرة ١٤٢٧ هـ، قال في جزء منها: «إنني أكرّر اليوم ندائي إلى جميع أبناء العراق الغياري من مختلف الطوائف والقوميّات بأن يعوا حجم الخطر الذي يهدّد مستقبل بلدهم ويتكاتفوا في مواجهته بنبذ الكراهية والعنف واستبدالهما بالمحبّة والحوار السلمي لحلّ كافّة المشاكل والخلافات»^(١).

وأضاف في نهاية الرسالة بخطابه إلى العراقيين جميعاً بقوله: «أيها العراقيون الأعزّاء.. إنّ الخروج من المأزق الذي يمرّ به العراق في الظروف الراهنة يتطلب قراراً من كلّ الفرقاء برعاية حرمة دم العراقي أيّاً كان ووقف العنف المتقابل بكافّة أشكاله»^(٢).
أيضاً في سؤال وجّهته مجلة (ديرشبيغل) الألمانية إلى سماحة السيّد في ٢٤ ذي الحجّة ١٤٢٤ هـ، جاء فيه (هناك من يلوّح ببروز حرب عرقية أو طائفية في العراق، هل لديكم مخاوف حقيقية من ذلك؟)^(٣).

وهنا أجاب سماحة السيّد بقوله: «أنّ القوى السياسية والاجتماعية العراقية ومعظم الشعب العراقي على وعي تامّ بمخاطر الانسياق وراء النعرات العرقية والطائفية، ونحمد الله تبارك وتعالى أنّه لم تقع من الحوادث المؤسفة المسيّبة عن ذلك في طوال الأشهر الماضية إلاّ النزر اليسير وقد تعاون الجميع على تطويقها والحدّ من نتائجها السلبية»^(٤).

كما نفى سماحة السيّد وجود صراع ديني بين الشيعة والسنة في العراق في إجابته على سؤال وجّهته مجلة (فورسايت) اليابانية في ١٤ رمضان ١٤٢٧ هـ، إنّ هناك أزمة

(١) المصدر السابق: ١٥٥.

(٢) م. ن: ١٥٦.

(٣) م. ن: ٩٧.

(٤) حامد الخفاف، النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ٩٧.

سياسية ومن الفرقاء من يارس العنف الطائفي للحصول على مكاسب سياسية وخلق واقع جديد بتوازنات مختلفة عمّا هي عليه الآن وقد تسبب هذا في زجّ بعض الأطراف أيضاً في العنف الطائفي ويضاف إلى ذلك ممارسات التكفيريين الذين يسعون في تأجيج الصراع بين الطرفين ولهم مشروعهم المعروف^(١).

وقد رفض السيّد أيّ أعمال عنف أو تجاوز قام بها من يحسب نفسه على المذهب وذلك باقتحام بعض مساجد إخواننا السنّة وطرده أئمّة الجماعة منها، وقال بوجوب رفع التجاوز وتوفير الحماية لإمام الجماعة وإعادته إلى جامعته معزّزاً مكرّماً^(٢).

وقد ورد في سؤال وجهته شبكة CNN إلى سماحته في ١٣ ذي القعدة حول رؤية السيّد بشأن العلاقات بين السنّة والشيعة فجاء جواب السيّد (دام ظلّه) بالقول: «إنّ العلاقة الأخويّة بين الشيعة والسنّة في العراق لن تتأثر ببعض الحوادث المؤسفة التي وقعت.... إلى أن قال: ومن المؤكّد أنّ العراقيين جميعاً سنّة وشيعة وغيرهم حريصون على وحدة بلدهم والدفاع عن ثوابته الدينية والوطنية، كما أنّهم متفقون على ضرورة التأسيس لنظام جديد يقرّ مبدأ العدالة والمساواة بين جميع أبناء هذا البلد في جنب مبدأ التعددية واحترام الرأي الآخر»^(٣).

ومن إنجازاته (دام ظلّه) في الإصلاح السياسي وحلّ الصراعات الدائرة في العراق إنّهُ فضّ النزاع القائم بين الميليشيات في النجف الأشرف والقوّات الأمريكية وذلك عندما نزلت به الأزمة القلبية واقتضى الأمر سفره إلى الخارج للعلاج حيث حاصرت القوّات الأمريكية والحكومية مدينة النجف الأشرف إثر تمادي بعض الميليشيات وتحصّنها في الصحن الحيدري الشريف فقطع السيّد (دام ظلّه) فترة نقاهته وراحته

(١) المصدر السابق: ١٦٢.

(٢) م. ن: ١١.

(٣) ظ: م. ن: ٨٣.

بعد العلاج وعاد مسرعاً إلى العراق، ولكن بتكتيك أربك من كان يبيت الشر بالنجف الأشرف عامداً أو جاهلاً، وأزعج غيرهم ممن لم يكن يعبأ بالدماء والمقدسات حيث نزل البصرة قادماً من الكويت وعباً العشائر ودعاهم للالتحاق بركبه وأعلن أنه سيزحف بجموع الجماهير باتجاه النجف الأشرف ليفك حصارها ويخرج المتمردين منها، وتقدم السيد (دام ظلّه) بإصرار لم يملك أمامه كلا الطرفين المتصارعين إلا القبول والنزول على رأي السيد (دام ظلّه)، حينها دخل النجف، بل فتحها وأنهى الأزمة وحال دون مجزرة كانت ستردي بالآلاف وستدمر أشرف العتبات الشيعية وهو مرقد أمير المؤمنين عليه السلام، فقد وضع عدة شروط تمّ الإلتزام بها من جميع الأطراف وحفظ السيد (دام ظلّه) كرامة المدينة وضرّيحها المقدس^(١).

حيث كان السيد (دام ظلّه) رافضاً من الأساس تشكيل الميليشيات، بل يريد تدعيم وتعزيز الجيش العراقي، وذلك في سؤال وجهته له شبكة (فوكس نيوز) في ٢٧ شعبان ١٤٢٤ هـ، عن رأيه (دام ظلّه) في الميليشيات الدينية، وهل يصادق على تشكيلها؟ أجاب بقوله: يلزم تعزيز القوات الوطنية المكلفة بتوفير الأمن والاستقرار ودعمها بالعناصر الكفوءة والمعدّات الضرورية، ولسنا مع تشكيل أي ميليشيات^(٢)، إضافة إلى دعوته إلى حصر السلاح بيد الدولة.

مما تقدّم يمكن القول أنّ السيد السيستاني (دام ظلّه) هو صمام الأمان والباعث للاستقرار في العراق ممّا يعني أنّه باعث للاستقرار في الأمة، ومواقفه الكريمة في وأد الفتنة وحفظ وحدة الأمة ممّا لا جدال فيه، فلو انفجرت الأوضاع في العراق سينفجر الوضع في كل مكان، لذا يجب أن نعلم أنّ هذه الرؤية العميقة التي يقدمها السيد السيستاني للتعاشيش بين أبناء المذاهب الإسلامية ونبذ الطائفية ليست فكرة أثارها في

(١) ظ: حسين محمد علي الفاضلي، الإمام السيستاني أمة في رجل: ٢٨٧-٢٨٨، ٣٠١-٣٠٢.

(٢) حامد الحفاف، النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ٧٤.

ذهنه التطوّرات السياسية، بل تنطلق من جذور دينية راسخة، فهو خرّيج مدرسة حملت همّ الوحدة والتقريب بين المسلمين منذ عقود من الزمن وهي مدرسة أستاذه السيّد حسين البروجردي (ت/ ١٣٨٠ هـ) الذي أسّس دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة في ستينيات القرن الميلادي المنصرم^(١).

ثانياً: الإصلاح المالي:

لا يخفى على من عاش فترة سقوط النظام ما أصبح عليه العراق من غياب السلطة وانفلات الوضع الأمني حيث لا حسيب ولا رقيب، وقد استغل هذه الظروف شرذمة ممن لا يريد بالعراق خيراً أو جماعة ممن كانوا تحت خط الفقر بسبب سياسة الطاغية المقبور صدام حسين، فحدثت حينئذ أعمال سرقة لأموال الدولة وممتلكاتها وقد سمّيت في حينها بـ (الحواسم)، وقد اتخذت المرجعية الرشيدة منها موقفاً حازماً يتضح من خلال إجابتها عن الاستفتاءات والأسئلة التي تردها بهذا الخصوص ومنها:

استفتاء قدّم من جمع من المؤمنين بتاريخ ٢٩ محرم ١٤٢٤ هـ، حيث نصّ في جزء منه على: (يقوم بعض الناس بالاستحواذ على الممتلكات العامّة كمحتويات المدارس والبلديات وأدوية المذاخر والمستشفيات ونحو ذلك، فما هو حكم ذلك في الشرع الشريف؟)^(٢).

وقد جاءت إجابة السيّد (دام ظله) واضحة بعدم جواز أخذ شيء منها وحرمة التعامل بها ومن فعل ذلك كان ضامناً^(٣).

كذلك ورد في سؤال آخر حول الاستحواذ على الممتلكات العامّة من المستشفيات والجامعات والدوائر الحكومية في ١٨ صفر ١٤٢٤ هـ، وكان ردّ سحاّته (دام ظله) بأنّه

(١) ظ: حسين محمد علي الفاضلي، الإمام السيستاني أمة في رجل: ٣٢٧-٣٢٨.

(٢) حامد الخفاف، النصوص الصادرة عن سحاّحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ٩.

(٣) ظ: حامد الخفاف، النصوص الصادرة عن سحاّحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ٩.

لا بدّ من التحفظ عليها وتسليمها إلى الجهات ذات الصلاحية لاحقاً^(١).

كما ورد في استفتاء آخر حول التجاوز على قطع الأراضي التي تعود ملكيتها للدولة وبنائها بيوتاً سكنية، وجاء جواب السيّد (دام ظلّه) (إنّ هذه القطع تعدّ من حريم المناطق السكنية ولا يجوز التصرّف فيها بما ذكر)^(٢).

كما أبدى السيّد عدم مأذونيّته لبيع المسروقات من الدوائر الحكومية من قبل من يدّعي بأنّ لديه إذناً من المرجعية وذلك في إجابته عن سؤال من أحد المؤمنين ونصّه (يقوم بعض أئمة المساجد في مدينة الثورة وغيرها ببيع ما تجمّع لديهم من المسروقات من الدوائر الحكومية ويدّعون أنّ لديهم الإجازة في ذلك من قبل الحوزة العلمية، فهل أذن سماحة السيّد في بيعها؟)^(٣).

وقد جاء الجواب من مكتبه في النجف الأشرف بالقول: (لم يأذن -مدّ ظلّه- في ذلك، بل لا بدّ من حفظ ما يتسنى حفظه وإرجاعه إلى الجهة ذات الصلاحية في الوقت المناسب)^(٤).

ومن هذا يتّضح حرص السيّد (دام ظلّه) على الحفاظ على ممتلكات الدولة وسيادتها وعدم نهب ثرواتها، بل إنّ (دام ظلّه) يدعو إلى مساعدة الدولة في إعادة ما سُرق من أموال وممتلكات عامّة.

كما أنّ السيّد منع بل لم يجوّز تهريب الثروات إلى خارج البلد كما في السؤال الذي قدّم إلى مكتب سماحة السيّد (دام ظلّه) في ١ ربيع الأوّل ١٤٢٤ هـ ونصّه: (يقوم بعض الناس بشراء المواد الغذائية والمواد الأولية من المعادن وغيرها ثمّ تهريبها إلى خارج البلد

(١) ظ: المصدر السابق: ١١.

(٢) م. ن: ١٣.

(٣) م. ن: ١٣.

(٤) م. ن: ١٣.

مما يخلّف أضراراً شديدة للاقتصاد الوطني^(١)، وجاء الجواب: (هذا غير جائز)^(٢).

وفي مجموعة استفتاءات قدّمت إلى مكتب السيّد (دام ظلّه) في ١٤ ربيع الأوّل ١٤٢٤ هـ حول نهب الآثار العراقية ومقتنيات المتحف العراقي بعد سقوط النظام السابق وتهريبها خارج البلد، أجاب السيّد (دام ظلّه) عن جميع الأسئلة بعدم جواز تهريب الآثار سواء الآثار الإسلامية أو غيرها إلى خارج البلد، إضافة إلى عدم جواز بيعها ووجوب إعادة ما يستنقذ منها إلى المتحف العراقي^(٣).

إضافة لما تقدّم فقد أجاب سباحته عن استفتاء قدّم إليه في ٣ ذي القعدة ١٤٢٤ هـ عن تهريب المشتقات النفطية وبيعها بعد ذلك على المواطنين بأسعار مرتفعة جداً وبشكل غير مشروع إلى ما يؤديه ذلك من شحّة في توفير المشتقات النفطية بقوله: (هذا حرام كله والربح المستحصل منه سحت والله الهادي)^(٤).

ومّا سبق يظهر جلياً دور سباحة السيّد (دام ظلّه) في الحفاظ على أموال الشعب والسعي إلى إصلاح الأوضاع المالية المتدهورة في العراق وذلك بإصداره الفتاوى المباركة التي تضع حدّاً لمن يريد السوء بالعراق والعراقيين ويريد أن يعيث في الأرض فساداً ويهلك الحرث والنسل.

إلى جانب ذلك يتّضح سعيه الحثيث لمساعدة الناس بشكل عام والفقراء بشكل خاص ومدّ يد العون لهم بتوفير ما يحتاجونه ليؤمّن لهم العيش الكريم ويحثّ الناس لأن يساعد بعضهم بعضاً مع دعائه لهم بالتوفيق كما يتّضح ذلك في طلب فتوى من سباحته بصرف الأموال الشرعية لمساعدة الفقراء في مدينة الصدر وغيرها والتي تعاني من فقر

(١) المصدر السابق: ١٦.

(٢) م. ن: ١٦.

(٣) حامد الخفاف، النصوص الصادرة عن سباحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ٢١-٢٢.

(٤) م. ن: ٨١.

شديد وإهمال متعمد وظروف معيشية صعبة على حدّ تعبير طالبي الفتوى، حيث طلبوا الإذن من سماحته (دام ظلّه) لتأمين حوائج المؤمنين في تلك المناطق المحرومة وفق الضوابط الشرعية، وقد أجاب السيّد (دام ظلّه) بالقول: (مأذونون في ذلك، وفقكم الله لكل خير وزاد لكم في الأجر والثواب والسلام عليكم وعلى جميع إخواننا المؤمنين ورحمة الله وبركاته)^(١).

أضف إلى ذلك حرص السيّد (دام ظلّه) على عدم إهدار المال العام وحسن التصرف في الأموال العامة وعدم التبذير بها أو استغلالها بما لا يخدم الصالح العام وذلك يتّضح في إجابته عن مجموعة من الاستفتاءات التي تقدّمت بها وزارة الكهرباء وبالتحديد من قبل وكيل وزارة الكهرباء في الجمهورية العراقية (سلام سعيد قزاز) في ٣ ربيع الثاني ١٤٢٦ هـ، سأل فيها عن الاستفادة من الطاقة الكهربائية دون دفع الثمن، أو استخدام أكثر من مصدر للطاقة الكهربائية، أو التبذير في استخدام الطاقة في المنزل أو في محالّ التجارة ممّا يتسبّب في زيادة ساعات القطع المبرمج من قبل الوزارة لتعويض النقص الحاصل من التجاوز على الشبكة أو استخدام أكثر من القدر المسموح به، وعن كل هذا أجاب السيّد (دام ظلّه) بعدم جواز مثل هذه الأمور وعبر عنها بأنّها سرقة من المال العام وإنّها لا تختلف عن السرقة من الأموال الخاصّة في الإثم والضمان، وقد دعا المواطنين إلى الاقتصاد في استخدام الطاقة الكهربائية من الشبكة العامّة والتعاون مع وزارة الكهرباء عسى أن يساهم ذلك في تقليل ساعات القطع على حدّ تعبيره^(٢).

من هذا وغيره يتجلى لنا الدور الكبير الذي يقوم به سماحة السيّد (دام ظلّه) في الإصلاح المالي للدولة العراقية وللمواطنين وحرصه على أن يخطو العراق خطوات واضحة في التقدّم والاقتصاد ومحاربة الفساد والمفسدين.

(١) ظ: المصدر السابق: ١٢٨.

(٢) ظ: حامد الخفاف، النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية:

ثالثاً: فتوى الجهاد الكفائي:

مرّ العراق بظروف عصبية منذ سقوط النظام البائد في ٢٠٠٣، فقد عانى من القتل والتفجير والتهجير والسلب والنهب منذ ذلك الحين وحتى الآن، كما عانى من ضعف الحكومات التي تعاقبت على حكمه وتفضيلها لمصالحها وسرقة أموال الشعب، إضافة إلى المحاصصة التي جعلت العراق ممزقاً بين هذا الحزب وذاك، فكلّ منهم يجرّ النار إلى قرصه ولا يعبؤون بالدماء التي تراق دون ذنب.

وقد أدت هذه الأوضاع المتدهورة والمستمرة منذ السقوط إلى تمكن شرذمة قليلة ممّن يعرفون بـ (داعش) من احتلال أجزاء من الأراضي العراقية وذلك بالتعاون مع بعض الخونة والعملاء ممّن لهم مناصب عليا في الدولة، حيث أعلنت (داعش) في ١١/٦/٢٠١٤ م نبأ سقوط الموصل تحت سيطرتهم وانسحاب الجيش والبيشمركة من أراضيها، وبعدها بدأت بأعمال عنف وتهجير وقتل على الهوية، إضافة إلى نواياهم بالزحف إلى بغداد وكربلاء المقدّسة والنجف الأشرف وعزمهم على هدم قبور الأئمة الأطهار عليهم السلام الموجودة فيها، كما قامت بإراقة الدماء والذبح والتنكيل كما حصل فيما يسمّى بـ (مجزرة سبايكر) التي راح ضحيتها أكثر من ١٧٠٠ شاب من طلاب القوّة الجوية في قاعدة سبايكر في الموصل.

بعد كلّ هذه الأحداث انتفضت المرجعية الرشيدة من أجل الدفاع عن العراق وأرضه ومقدّساته، ففي خطبة الجمعة التي ألقاها ممثل المرجعية الدينية العليا في كربلاء المقدّسة الشيخ عبد المهدي الكربلائي في ١٤ شعبان ١٤٣٥ هـ الموافق ١٣/٦/٢٠١٤ م أكّد الخطر العظيم لهذه الجماعات الإرهابية، حيث إنهم لا يهدفون إلى السيطرة على بعض المحافظات كينوى وصلاح الدين فقط بل صرّحوا بأنهم يستهدفون جميع المحافظات لاسيّما بغداد وكربلاء المقدّسة والنجف الأشرف، فهم يستهدفون جميع العراقيين وفي جميع مناطقهم على حدّ تعبيره، لذا فإنّ مسؤولية التحدي هي مسؤولية الجميع ولا

يختصّ بطائفة دون أخرى أو بطرف دون آخر^(١).

ثمّ تابع قائلاً: «إنّ طبيعة المخاطر المحدقة بالعراق وشعبه في الوقت الحاضر تقتضي الدفاع عن هذا الوطن وأهله وأعراض مواطنيه، وهذا الدفاع واجب على المواطنين بالوجوب الكفائي، بمعنى أنّه إذا تصدّى له من بهم الكفاية بحيث يتحقق الغرض - وهو حفظ العراق وشعبه ومقدّساته - يسقط عن الباقيين»^(٢).

ثمّ أعقب ذلك بأنّ المرجعية العليا تؤكّد على أنّ من يضحي بنفسه منكم في سبيل الدفاع عن بلده وأهله وأعراضهم فإنّه يكون شهيداً إن شاء الله تعالى^(٣).

وبعد انتهاء صلاة الجمعة هرع المواطنون شباباً وشيبة لتسجيل أسمائهم للتطوّع والانخراط في القوّات الأمنية، وقد سمّوا فيما بعد بـ (الحشد الشعبي) الذين سطّروا أروع الملاحم في الدفاع عن أرض العراق وشعبه ومقدّساته، وهم - بحسب تقديري القاصر - مصداق الآية الكريمة ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾^(٤).

(١) موقع مكتب سماحة المرجع الديني السيّد علي الحسيني السيستاني على الإنترنت
www.sistani.org.

(٢) موقع مكتب سماحة المرجع الديني السيّد علي الحسيني السيستاني على الإنترنت
www.sistani.org.

(٣) م. ن.

(٤) الأحزاب: ٢٣.

الخاتمة

بعد هذه الجولة السريعة في خضمّ هذا توصلت الباحثة إلى النتائج الآتية:

١. اهتمام فقهاء الإمامية بإصلاح شؤون البلاد والعباد.
٢. يتجلى لنا من خلال النصوص الصادرة أنّ سماحة المرجع الأعلى السيّد السيستاني (دام ظله) ينطلق من ضرورة حفظ النظام في تأسيس الدولة.
٣. اتضح حرص السيّد السيستاني (دام ظله) في الحفاظ على الممتلكات العامة في أحلك الظروف التي مر بها البلد.
٤. كان دور السيّد (دام ظله) بارزاً في التوجيهات المالية والإرشادات الاقتصادية في حلّ عقدة الإصلاح الاقتصادي في البلد.
٥. إنّ من أهم إنجازات السيّد السيستاني (دام ظله) في الإصلاح السياسي هو حلّ الصراعات الدائرة في العراق.
٦. من أبرز إصلاحات السيّد السيستاني (دام ظله) السياسية هو رفع حواجز الطائفية بين السنة والشيعة وغرس روح الأخوة بينهما مما ينعكس إيجاباً على مكونات الشعب العراقي.
٧. حاول السيّد السيستاني (دام ظله) رسم خارطة الطريق الواضحة في انضباط موظفي الدولة وانعكاسه على الوضع الإداري للدولة من خلال توجيهاته السديدة.
٨. إنّ مفهوم الدولة المدنية أضحت جلية في أبرز ركائزها في منظور السيّد السيستاني (دام ظله).

٩. تعد فتوى الجهاد الكفائي إصلاحاً كبيراً في حفظ هيبة الدولة العراقية وعدم انهارها في أعتى مواجهة عرفها العراق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين..

ملحق بيانات السيد السيستاني (دام ظلّه)

المصادر والمراجع

خير ما نبتدى به كتاب الله تعالى القرآن الكريم.

١ الأمين: العلامة السيّد محسن بن عبد الكريم بن علي الحسيني العاملي (ت/ ١٣٧١هـ)، أعيان الشيعة، تح/ حسن الأمين، ط ٥، دار التعارف للمطبوعات بيروت لبنان، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٢ ابن جبر: زين الدين علي بن يوسف (القرن السابع)، نهج الإيمان، تح/ السيد أحمد الحسيني، ط ١، ستارة قم، الناشر مجتمع الإمام الهادي مشهد، ١٤١٨هـ.

٣ الجرجاني: علي بن محمد (ت/ ٨١٦هـ)، كتاب التعريفات، د.ط، د.ت.

٤ الجوهري: إسماعيل بن حماد (ت/ ٣٩٣هـ)، تاج اللغة وصحاح العربية، تح/ أحمد عبد الغفور العطار، ط ٤، دار العلم للملايين بيروت لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٥ الخراساني: الشيخ وحيد (معاصر)، مقدمة في أصول الدين، د.ط، د.ت.

٦ الخفاف: حامد (معاصر)، النصوص الصادرة عن ساحة السيّد السيستاني (دام ظله) في المسألة العراقية، ط ١، دار المؤرخ العربي، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م.

٧ الدجيلي، جعفر باقر، موسوعة النجف الأشرف، ط ١، دار الأضواء بيروت، ١٩٩٣م.

٨ ابن دريد: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت/ ٣٢١هـ)، جمهرة اللغة، ط ٢، دار العلم للملايين بيروت لبنان، ١٩٨٧م.

٩ الزبيدي: محب الدين أبي فيض محمد مرتضى الحسيني (١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تح/ علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

١٠ الزركشي: بدر الدين محمد بن بهادر (ت/ ٧٤٩هـ)، البحر المحيط في أصول الفقه، تح/ محمد محمد تامر، ط ١، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١١ الشيرازي: الشيخ العلامة ناصر مكارم (معاصر)، الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، طبعة جديدة منقحة.

١٢ الصغير: الشيخ الدكتور محمد حسين علي (معاصر)،

- أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف، ط ١، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

- قادة الفكر الديني والسياسي في النجف الأشرف، ط ١، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

١٣ الطهراني: الشيخ آغا بزرك (ت/ ١٣٨٩هـ)،

- الكرام البررة في القرن الثالث بعد العشرة، ط ١، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

- نقباء البشر في القرن الرابع عشر، ط ١، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

١٤ الطوسي: شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي (ت/ ٤٦٠هـ)،

- التبيان في تفسير القرآن، تح/ أحمد حبيب قيصر العملي، ط ١، مكتب الاعلام

الإسلامي، رمضان المبارك ١٤٠٩ هـ.

- تهذيب الأحكام، تح/ السيد حسن الموسوي الخرساني، ط ٣، مطبعة خورشيد، دار الكتب الإسلامية - طهران، ١٣٦٤ ش.

١٥ العاملي: جعفر مرتضى (معاصر)، مختصر مفيد، ط ١، المركز الإسلامي للدراسات ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

١٦ العاملي: محمد جواد (ت/ ١٢٢٨ هـ)، مفتاح الكرامة، تح/ الشيخ محمد باقر الخالصي، ط ١، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٩ هـ.

١٧ الفاضلي: حسين محمد علي (معاصر)، الإمام السيستاني أمة في رجل، ط ١، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، ١٣٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

١٨ الفراهيدي: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت/ ١٧٥ هـ)، العين، تح/ د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، ط ٢، دار الهجرة قم إيران، ١٤٠٩ هـ.

١٩ القمي: الشيخ عباس (ت/ ١٣٥٩ هـ)، الكنى والألقاب، تقديم محمد هادي الأميني، مكتبة الصدر طهران، د.ت.

٢٠ كاشف الغطاء: الشيخ الأكبر جعفر بن خضر بن يحيى الجناحي (١٢٢٨ هـ)، كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء، تح/ عباس التبريزيان، محمد رضا الذكري (طاهريان) و عبد الحليم الحلي، ط ١، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٢٢ هـ.

٢١ كاشف الغطاء: الشيخ علي بن الشيخ محمد رضا، أدوار علم الفقه وأطواره، ط ١، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

٢٢ الكليني: ثقة الإسلام أبو جعفر محمد بن يعقوب الرازي (ت/ ٣٢٨ هـ - ٣٢٩ هـ)، الكافي، تح/ علي أكبر الغفاري، ط ٥، مطبعة حيدري، الناشر دار الكتب

الإسلامية طهران، ١٣٦٣ ش.

٢٣ كمال الدين: السيّد محمد علي (ت/ ١٣٨٥ هـ)، النجف في ربيع قرن منذ ١٩٠٨،
تح/ كامل سلمان الجبوري، ط ١، دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٦ هـ -
٢٠٠٥ م.

٢٤ الكوراني: الشيخ علي العاملي (معاصر)، إلى طالب العلم، ط ١، ١٤٣١ هـ -
٢٠١٠ م.

٢٥ المالكي: ابن الصباغ علي بن محمد (ت/ ٨٥٥ هـ)، الفصول المهمة في معرفة
الأئمة، تح/ سامي الغريبي، ط ١، مطبعة سرور، الناشر دار الحديث للطباعة والنشر،
١٤٢٢ هـ.

٢٦ المجلسي: العلامة الحجّة الشيخ محمد باقر بن محمد تقي (ت/ ١١١١ هـ)،
بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأطهار، ط ٢، مصححة، مؤسسة دار الوفاء بيروت
لبنان، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

٢٧ آل محبوبة: جعفر باقر (ت/ ١٣٧٧ هـ)، ماضي النجف وحاضرها، ط ٢، دار
الأضواء بيروت لبنان، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٢٨ المشكيني: علي (معاصر)، اصطلاحات الأصول، ط ٥، مطبعة الهادي قم
إيران، ١٤١٣ هـ.

٢٩ ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد الأفريقي المصري (ت/ ٧١١ هـ)،
لسان العرب، أدب الحوزة قم إيران، محرم ١٤٠٥ هـ.

٣٠ موسوعة طبقات الفقهاء فقهاء القرن الثالث عشر، الشيخ جعفر السبحاني
(معاصر)، د. ط، مؤسسة الإمام الصادق قم إيران، ١٤٢٤ هـ.

٣١ النوري: الميرزا حسين الطبرسي (ت/١٣٢٠هـ)، خاتمة المستدرک، تح/
مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، ط ١، ستارة قم، الناشر مؤسسة آل البيت عليه السلام
لإحياء التراث - قم - إيران، رجب ١٤١٥هـ.
٣٢ الإنترنت.